تَجْرِبَتِيْ فِي الْخَطَابَةِ

إعداد: أحمد بن ناصر

الطيار

(المقدمة)

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، أما بعد:

فهذه مشاركةٌ - لاغير - لإِثْراء موضوع خطب الجمعة، بنقلِ تجربتي وطريقتي في إعدادها وإلقائها، وذكرِ مراحل انتقالي من قراءة الخطبة إلى ارتجالِها، مع بعض النصائح والقواعد في هذا الموضوع الكبير المهم.

والذي حفّزني على الكتابة طلب أحد المشايخ مني أن أكتب تجربتي له ولغيرِه، فعزمت على تدوين تجربتي عبر مقال مختصر، وبعد أن كتبت ما تيسر في بضعِ صفحات طلب مني آخر أنْ أكتب تجربتي، فقذف الله في قلبي العزيمة على التوسّع في ذلك، فنشطتُ على الاستقصاءِ والتوسّع والبحث، وتدوين كل ما خطر في بالي في هذا الموضوع وما يتعلّق به.

وإني على يقين تامٍّ وقناعةٍ راسخةٍ بأني لست في مصافّ الخطباء الذين أمضوا عشرات الأعوام في الخطابة، والذين لهم الأثر البالغ في نفع الناس عبر خطبهم المباركة، وليست مشاركتي هذه موجهةً لهم، فأنا لازلت أتعلّم منهم ومن غيرِهم، ولكني أحببت أن يستفيد من تجربتي من هو مثلي ومن يأتي بعدي من طلاب العلم والخطباء والدعاة إلى الله.

وما أقول إلا كما قال أبو حيان[١]: (في نظرائي وأشكالي من فهمه أثبت من فهمي ، وذهنه أنفذ من ذهني ، وحفظه أغزر من حفظي ، وقلبه أذكى من قلبي ، لكني آثرت أن يكون لي فيمن دوني أثر ، كما كان لمن فوقي عندي أثر). ا.هـ

***

أحمد بن ناصر الطيار
خطيب جامع/
عبد الله بن نوفل بالزلفي
وداعية في وزارة الشؤون الإسلامية.
البريد الإلكتروني:
ahmed0411@gmail.com
رقم الجوال: ٠٥٠٣٤٢١٨٦٦

تاريخ الانتهاء من إعدادِه يوم الخميس، الموافق: ١٤٣٩/١٢/٢٦

[١] – في كتابه البصائر والذخائر: ٧/ ٢٦٩

(أهميّةُ الخطبة)

منبر الجمعة من أقوى – أو أقوى – وسائل التأثير على الناس إذا حسن تفعيلُه، حيث يُخاطب الخطيب الناس مرةً كلّ أسبوع على مدى سنوات قلّت أو كثرت، وقد فتحوا له عقولهم، وشرحوا له صدورهم، يتلقفون منه النصائح والمواعظ والدروس والعبر بشكل متكرر ومستمرّ، والخطيب الناجح الموفق، الذي أعطاه الله الأسلوب المقنع، والبيان القوي: سيؤثر فيهم تأثيرا بالغًا ولا شك، وربما يكون أشد وأقوى من تأثير المعلم على طلابه، وأشد من تأثير مواقع التواصل الاجتماعي؛ لأنَّ الخطيب المفوه الناصح البليغ يُخاطب الناس مباشرةً وهو واقف أمامهم، يشاهدون تقاسيم وجهه، وتعابير عينيه، فيؤثر فيهم عبر حاسة السمع والبصر، ويظلون منصتين له مدة طويلة قد تتجاوز ربع ساعة، ويسوق لهم الحجج والبراهين العقلية والنقلية التي يستطيع من خلالها – بإذن الله – أن يقنعهم ويصحح مفاهيمهم، وفي كل جمعة يأتيهم بموضوع يلامس مشاعرهم، ويأخذ بقلوبهم، ويلتقي بهم خلال عام واحد ما يُقارب خمسين مرّةً، فهل هناك وسيلة أقوى تأثيرا من هذه الوسيلة؟

ولذا كانت خطبةُ الجمعة من أشرف شعائر الإسلام، وأحد أهم ميادين الدعوة إلى الله وتبليغِ شريعتِه، وإقامة الحجة على عباده، وهي التي يتمنى أعداء الإسلام أن يكون في دينهم مثلها، حتى قال أحد زعماء الأحزاب التي تحارب الإسلام: "آهٍ لو كان عندي مثل هذه المنابر"؟![1]

---

[1] – نقله صاحب كتاب: خواطر في الدعوة لمحمد العبدة: ٩٤

"وتَشرُف العلومُ والصنائع بمقدار ما تشرُف غاياتها، وللخَطَابة غايةٌ ذاتُ شأنٍ خطيرٍ، وهي إرشاد الناس إلى الحقائق، وتشويقِهم إلى ما ينفعهم في هذه الحياة، وفي تلك الحياة.

والخطابة معدودةٌ في وسَائلِ السِّيَادَة والزَّعَامة..

ففي الخطابة شرفٌ عظيمٌ، وشَرَفُها في أن يكونَ القائمُ عليها نبيهًا عالِمًا بليغًا".[١]

وقد أوجب الشارع على المصلي أن يُنْصِتَ لك – أخي الخطيب – أثناء خطبتك.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِذَا قُلْتَ لِصَاحِبِكَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ أَنْصِتْ، وَالْإِمَامُ يَخْطُبُ، فَقَدْ لَغَوْتَ. متفق عليه[٢]

بل ويُسنُّ للناس أنْ يصرفوا وجوههم لك، وقد نقل النووي وابنُ المنذر وابنُ عبد البر عليهم رحمةُ الله: الإجماعَ على اسْتحباب ذلك.[٣]

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: وكان صلى الله عليه وسلم إذا خطب في الجمعة، استدار أصحابه إليه بِوُجُوهِهِمْ، وكان وجهه صلى الله عليه وسلم قِبَلَهُم في وقت الخطبة. ا.هـ[٤]

---

[١] – الخطابة عند العرب، لمحمد الخضر حسين: ١٧٨-١٧٩

[٢] – البخاري (٩٣٤)، ومسلم (٨٥١).

[٣] – المجموع ٤/ ٤٤٧

[٤] – زاد المعاد ٤١٦/١

ويوم الجمعة مِن أحب وأعظمِ الأيام عند الله تعالى، ويكفي في فضلِه وشرفِه قولُه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا، وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ». رواه مسلم[١]

ولهذا فقد خصَّه النبيُّ صلى الله عليه وسلم بمزيدِ عنايةٍ واهتمامٍ، لأنه كلمَّا عظُم زمانٌ أو مَكانٌ، عظمت الطاعةُ والعبادةُ فيه.

وأعظم عبادةٍ يقوم بها المسلمون في هذا اليوم: صلاة الجمعة، التي هي من آكد فروضِ الإسلام، ومن أعظم مجامع المسلمين، وهي أعظم مِن كلِّ مَجْمَعٍ يجتمعون فيه، سوى مَجْمَعِ عرفة، ومن تركها تهاونًا بها طَبع الله على قلبه، وقُرْبُ أهل الجنة يوم القيامة وسَبْقُهُم إلى الزيارة يوم المزيد، بحسب قربهم من الإمام يوم الجمعة وتبكيرِهم. كما قال ابن القيم رحمه الله تعالى.[٢]

***

[١] – (٨٥٤).

[٢] – زاد المعاد ١/ ٣٦٥

(ملائكة الرحمن تستمع لك، فاقدر لها قدرها)

يكفيك شرفًا وفخرًا – يا خطيب الجمعة – أنّ ملائكة الرحمن تحضر عندك للاستماع لخطبك ومواعظك، قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما في الصحيحين[١]: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، كَانَ عَلَى كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْمَسْجِدِ مَلَائِكَةٌ يَكْتُبُونَ الْأَوَّلَ فَالْأَوَّلَ، فَإِذَا جَلَسَ الْإِمَامُ طَوَوُا الصُّحُفَ، وَجَاءُوا يَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ».

وإذا استشعرت ذلك عظم قدر الخطبة في قلبك، وازددت حرصًا على قول الحقّ وأداءِ الأمانةِ ونصحِ الناسِ وعدمِ مراقبتِهِم ومداهنتِهِم.

فمَن مثلك – أيها الخطيب المبارك –؟ أَوْجب الله على الناس الاستماع لك والإنصات لكلامك، حتى إنه نهاهم عن الانشغال ولو بتقليب الحصى[٢]، وعن إنكار المنكر أثناء حديثك[٣]، وجعلَ ملائكته يستمعون لك!

وهذا يُحتم عليك أنْ تنصح غاية النصح في خطبك ومواعظك، وأنْ يكون مقصودُ خطبك ذكر الله وموعظة الناس وتبصيرهم أمور دينهم ودنياهم.

---

[١] – البخاري (٣٢١١)، ومسلم (٨٥٠).

[٢] – روى مسلم (٨٥٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من مسَّ الحصى فقد لغا».

[٣] – روى البخاري (٩٣٤)، ومسلم (٨٥١) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إذا قلت لصاحبك أنصت يوم الجمعة والإمام يخطب فقد لغوت".

(أنواع الخطباء)

الخطباء كغيرهم يختلفون حسب اختلاف مشاربهم ومقاصدهم، وحسب هِمَمهم وهمومهم، وحسب أهدافهم وغاياتهم.

ولا يخلو الخطباء من أحد أقسام أربعة:

الأول: من جمع بين سوء الاتباع وضعفِ الإبداع، كحال أهل الأهواء والبدع، الذين ليس لهم همة في نشر باطلهم.

الثاني: من عنده سوء الاتباع وقوة الإبداع، كحال أهل الأهواء والبدع، الذين لهم همة في نشر باطلهم، وجعلوا المنبر وسيلةً لنشره.

الثالث: من عنده صدق الاتباع وضعفِ الإبداع، كحال أهل السنة، الذين ضعفت هممهم، وغايةُ مراد أحدهم: جمع مادةٍ يلقيها على لناس بلا أهداف نبيلة، وغايات سامية.

الرابع: من جمع بين صدق الاتباع وقوة الإبداع، وهو الذي جرى حبّ الله تعالى في عُروقه، وسرى طلب تبليغ رسالاتِه إلى سويداء قلبِه، وجعل المنبر أحد أبواب نشر الخير والعلم ولم يقتصر عليه، بل له مشاركاتٌ ومساهماتٌ في كلّ ميدان من ميادين الخير والبرّ قد استطاعتِه، أينما كان الخير وجدته أحد روّادِه، وأينما كان البذل رأيتَه أحدَ أقْطابِه، وأينما كانت التضحية لله وجدتَه أحد أجنادِه.

فهذا الخطيب جرت الدعوة إلى الله في عروقه ودمه كما كان الأنبياء والمرسلون، والدعاة المخلصون لأمة الإسلام.

"فهناك الكثير من الخطباء الذين تتوافر فيهم مقومات الخطيب لم تكن لخطبته ثمرة مرجوة كما هو مطلوب للخطيب الذي يحمل الرسالة بصدق وإخلاص.

قال أحد العلماء: إن الداعية غير الخطيب؛ الخطيب خطيب وكفى، والداعية مؤمن بفكرة يدعو إليها بالكتابة والخطابة، والعمل الجادّ في سيرته الخاصة والعامة وبكل ما يستطيع من وسائل.

والداعية هو كاتب وخطيب ومحدث وقدوة يؤثر في الناس بعمله وشخصه، والداعية قائد في محيطه".[١]

"والخطيب البارع يقف في الجُنْدِ المتباطئ، ويصفُ له ما ينالُه الأبطالُ من عِزَّةٍ يوم يعيشون، أو سعادةٍ يوم يموتون، فينقلبُ التَّرَدُّدُ عَزْمًا صارمًا، والإحجامُ هجومًا رائعًا.

الخطيب البارع يقف في الجماعة الخاملةِ، فيهزُّ قلوبَهم هَزًّا، فإذا هي ناهضةٌ من خُمُولها، عاملةٌ لإعلاء ذِكْرِها، مُقْتَحِمَةٌ كلَّ عقبةٍ تقوم في طريقها.

الخطيب البارع يقف بين قومٍ نشؤوا في بيئةٍ مغبرة جهلاً وعَمَاية، أو تلقَّتهم دُعَاة الغَوَاية، قبل أن تألفَ الحقَّ بَصَائِرُهم، ويَشتدَّ في العلم ساعدُهم، فلا يبرح يعرِض عليهم سُبُلَ الهداية في استوائها ونقائها، فإذا هم الرِّجَالُ المصلحون، أو الزعماء الناصحون.

---

[١] – الخطابة، إعداد: جامعة المدينة العالمية: ٩٢-٩٣

الخطيب البارع يقف بين طائفتين استعرت بينهما نارُ العداوة، ولم يبق بينهم وبين أن يصبح لونُ الأرضِ أحمرَ قانيًا إلا شِبْرٌ أو ذراع، فيذكِّرهم بعواقب التَّدَابر، وينذرهم مصارعَ التقاتل، فإذا القلوب راجعةٌ إلى ائتلافها، والسيوفُ عائدةٌ إلى أغمادها".[١]

[١] – الخطابة عند العرب، لمحمد الخضر حسين: ١٨٠

(الصعوبات التي واجهتها في بدايةِ عملي في الخطابة)

كنت في بدايةِ عملي في الخطابة أجد صعوبةً بالغةً في الكتابة والإعداد، وفتوراً في ذلك، وأُعد الخطبة على مدار أسبوعٍ كاملٍ أحياناً، فأكتب السبت صفحةً وأمكث عليها تفكيراً وبحثاً، واختياراً للأسلوب الأمثل، والكلمات اللائقة، وربما محوت كلمة وكتبت غيرها، وهكذا في اليوم الثاني والثالث، فأجد للخطبة همَّاً وقلقاً، فإذا ما انتهيت من الخطبة يوم الجمعة: انزاح عني الهمّ والقلق، وشعرت أنني في إجازةٍ وفُسحة، وإذا جاء يوم السبت عاد الهمُّ وقلقُ الإعداد والبحث عن الخطبة المناسبة للجمعة القادمة، واشْتغلت خلال الأسبوع في البحث والكتابة التي أجد مللاً وضجرًا منها، وكنت أستعين – أحيانًا – بالخطب الجاهزة، وربما نقلت خطبةً كاملةً أَعَدَّها غيري، أو أجزاءً منها.

ودمتُ على ذلك ما يُقارب عامًا كاملاً، وأنا في جهدٍ جهيد، ولكن بعد الاستعانة بالله وحده أولا، ثم الممارسةِ والمران: سهُل عليَّ الأمر، وأصبحت أُعدّ الخطبة في يوم أو سويعات.

فما هو إلا تعويد النفس، ومُجاهدتها على الكتابة، حتى ترى من نفسك مرونةً وخفَّةً في ذلك.

وكنت أجد همًّا وقلقاً يوم الجمعة قبل الخطبة، وكيف لا أجد هذا الهم والخوف والقلق، وأنا سأعرض عقلي وعلمي على الناس، الذين فيهمُ المثقَّفُ والعالم، والْمُدقِّقُ والناقد، وربَّما المبغضُ والحاسد، وبين يديَّ مَن تتلمذت في الدراسة على يديه؟!

فعرضُ عقلي على هؤلاء من أشد الأمور عليّ.

وقد قال ابن المقفّع (ت١٤٤): ((مَن وضع كتابًا فقد استُهدِف فإن أجاد فقد استُشرِف، وإن أساء فقد استُقذِف)).

وقال يحيى بن خالد البرمكي (ت١٩٠): ((ثلاثة أشياء تدلّ على عقول أربابها : الهدية، والكتاب، والرسول)).

وقال الجاحظ (ت٢٥٠): ينبغي لمن كتب كتابا ألا يكتبه إلا على أن الناس كلهم له أعداء وكلهم عالم بالأمور وكلهم متفرغ له.

وقال الخطيب البغدادي (٤٦٣): ((من صنّف فقد جعل عقلَه على طبق يعرضه للناس)).

فالمتصدي للخطب والإلقاء إنما يعرض عقله على الناس ، ولهذا ينبغي له أن يعلم أنه سيستمع لخطبه وكلامه وتقريراته المحب والمبغض ، والعالم ومن هو دونه، والحكيم واللئيم، فلا يعتقد أن كلَّ من سيحضر خطبه ومحاضراته سيثني عليها ويُحدِّث بمحاسنها.

فلذلك حصل مني هذا الخوف والقلق إلى حدٍّ كبير، ولكن زال عني ذلك – بفضل الله تعالى– مع الدُّربة والْمُمارسة والحمد لله أولاً وآخراً.

وقد كنت في البداية أحرص على رفع رأسي للناس؛ لكي أعتاد عل الجرأة، ونزعِ الهيبة التي تعتري مَن يُقابل الجماهير الغفيرة، ولكي أقلِّل من اعتمادي على الورقة، ولكن كنت أغلط أحياناً وأرتبك أحياناً أخرى، ممَّا أدّى ببعض الناس ممَّن لا يحتمل من الخطيب أيَّ هفوة، ولا يقبل منه أيَّ زلَّة إلى تركِ الحضور عندي، حتَّى صرَّح لي بعضُ الأصدقاء بأنه استغرب مني بعض الارتباك وعدم التوازن في الأداء، وطلب مني بعضهم بألا أرفع رأسي أبداً، وألا أخرج عمَّا في الورقة بتاتاً.

فكنت أمتنع من ذلك، وأصمِّم على فعلي، لأجل أنْ أطور من أدائي في الخطبة، وأُحَسِّن وأتقن الإلقاء، وأقلل من الرهبة والخوف، ولو أخذتُ برأيهم لظللت على ما أنا عليه دون تطويرٍ وإبداع.

ومع مرور الأيام: رأيت ورأى غيري تغيُّراً ملحوظاً في الأداء، وتوازناً وتحسُّناً في الإلقاء، وأصبحتُ أنظر إلى الجمهور دون وجلٍ وارتباك، حتى إني أُنشئُ العبارات والجُمل التي تخطر في بالي أثناء الخطبة ولله الحمد والمنة، وهذا قبل مرحلة ارتجال الخطبة.

(قصةُ انتقالي من قراءة الخطبة إلى ارتجالِها)

أمضيت عقدًا من الزمان وأنا أخطب بورقة، ثم بعد ذلك عزمتُ على الارتجال وترك قراءة الخطبة، وكان هذا من أصعب القرارات التي اتخذتها في حياتي، حيث إنَّ جماعة المسجد قد اعتادوا على نمط معيّن، فالانتقال عنه صعب ويُثير الاستغراب، ويفتح باب السؤال والجواب، وقد يُؤدّي إلى الاعتراض أو الانتقاد، وهذا ما حصل، فقد واجهت بعض النقد والاعتراض على الخطابة ارتجالا، وقد أحْدَث ذلك في نفسي نوعًا من القلق والإرجاف، وقلَّل ثقتي بقراري، مما جعلني أخطب على وجل وخوف من الخطأ حتى لا يُقال: نصحناك بعدم الارتجال، وأخبرناك بأنه قرار خاطئ.

ولكن هذا زاد من عزيمتي – بحمد الله تعالى–، حيث جعلت هذا التثبيط والنقد السلبي سلّمًا لي نحو الثبات على المبادئ الشريفة، والسموّ نحو الغايات النبيلة، ولم أكتف بتجاهله، بل جعلت أقول: سأثبت لهم ولغيرِهم أنّ الارتجال أفضل وأنفع وأكمل، وهذا منهجي مع المثبطين والنقّادين.

ومما زاد من عزيمتي كذلك: ما رأيته من الآثار الإيجابية عليّ وعلى المستمعين، كالحماس وتغيّر الأسلوب إلى الأحسن، وزيادةِ تفاعلي أثناء الخطبة، مما أثَّر ذلك على المستمعين فازدادوا نشاطًا وحماسًا، وقد رأيت ذلك في قسمات وجوه الكثير منهم، وسمعت ذلك من بعضهم.

وأمضيت على ذلك قرابة عام كامل، ولكني أخطب بورقتين أضع بهما أهمّ ما سأتكلم عنه، وأضع فيهما رؤوس الأدلة والمواضيع والنقاط، ومع ذلك أشعر بأني حبيس هاتين الورقتين، ولم أتخيّل بأني أستطيع أنْ أخطب بلا ورقة أبدًا.

وبعد ذلك شعرت أنني أَقْدَرُ من قبلُ في جلب العبارات واستحضار الأدلة، فاقتصرت على ورقة واحدة، وأمضيت على ذلك ثلاثة أشهر، ومع ذلك أيضًا لازلت حبيس الورقة، ولا أستطيع الخطابة بدون كتابة رؤوس الأدلة والمواضيع، حتى إنني أكتب بعض العبارات التي لم أستطع أن أقولها دون قراءتها.

وخلال هذه المدة كنت حريصًا أشدّ الحرص على إلقاء الكلمات والمحاضرات في المساجد والجوامع الكبيرة في بلدي، وفي أيّ مدينة أذهب إليها، ومن أهمّ أهدافي في ذلك: التعوّدُ على الارتجال، والقدرةُ على الطلاقة في الحديث، وكسرُ حاجز الخوف والتوتر من مقابلة الناس، وقد تحقّقت هذه الأهداف بحمد الله تعالى.

وكنت على يقين تامّ بأنّ مَن انقطع إلى شيء أتقنه، فلذا انقطعتُ ساعاتٍ طويلةً هذه المدة لأتْقن مهارة الإلقاء والارتجال، فالحمد لله الكبير المتعال.

ثم سافرت إلى مكة – شرفها الله –، وهناك جعلتُ مِن أهم أهدافي أنْ أطور نفسي في الخطابة، حيث إن الناس لا يعرفونني، فلن أتحرج من الخطابة بلا ورقة، وهذا ما حصل بحمد الله، فقد خطبت ثلاث خطب بلا ورقة، وقد وجدت ذلك أفضل بكثير، وأسهل عليّ، وأقوى في شدّ انتباه المستمعين، ومما وجدته – وتعجبت منه كثيرًا – عدة أمور:

أولا: زوال الرهبة تمامًا، فإني – بحمد الله – أشتاق ليوم الجمعة لأخطب وأنفع الناس، وأنشر علمي بينهم، وهذا ما لم أجده قبل ذلك، وخاصةً حينما كنت أخطب بورقة، فقد كنت أجد الهم في إعداد الخطبة، وكتابتها وانتقاء أفصح الكلمات وأبلغ العبارات.

ولكني حينما تركت التكلف وجعلت ألقيها على عواهنها شعرت بالمتعة في إعدادها وإلقائها.

ثانيًا: أنّه حينما أُعِدّ الخطبة وأرتبها في ذهني، وأدون رؤوس ما سأقوله في ورقة، ثم أُلْقيها على نفسي قبل الخطبة بها: أخطب بها بعد ذلك وكأني أحفظها، ووجدت سهولةً في جلبِ وانتقاءِ الكلمات والعبارات أثناء الخطبة، وهذا ما لم أجده ولا عشره في بداية ارتجالي للخطب.

وما ذاك – والله أعلم– إلا بسبب توفيق الله أولا، ثم بسبب أن العقل كغيره من الأعضاء، يقوى بالتدرب والتمرين وطول الممارسة، فيسهل جلب الأدلة والعبارات منه عند الحاجة، حتى إنّ الخطيب مع طول المران يتفنن في اختيار العبارات والكلمات والشواهد دون تحضير مسبق.

"والخطابةُ لا يُحكِم صُنعَها إلا من يأخذ بها خاطِرَه يومًا فيومًا، ويُروِّضُ عليها لسانَه في هذا الْمَجْمَعِ مَرَّةً، وفي ذلك الْمَجْمَعِ مَرَّةً أخرى.

نقرأ في كتب الأدب ما يدلُّنا على أن العرب كانوا يأخذون أنفسهم بالتدرُّب على الخطابة حتى تلين لهم قناتُها، نجدهم حين يتحدثون عن عمرو بن سعيد بن العاص يقولون: إنه كان لا يتكلَّم إلا اعترَتْهُ حُبْسَةٌ في مَنْطِقِه، فلم يزل يَتَشَادَقُ ويعالِجُ إخراج الكلام حتى مَالَ شِدْقُه، ومن أجل هذا دعي بالأشدق، وإياه يعني الشاعر الذي يقول:

تَشَدَّقَ حتى مَالَ بالقولِ شِدْقُهُ ... وكُلُّ خطيبٍ لا أبا لك أَشْدَقُ.

والخطابة كسائر الصناعات يتفاوت الناس في إتقانها والأخذ بزمامها؛ فمنهم مَنْ يمتلكها في أَمَدٍ قريبٍ، ومنهم مَنْ يحتاج إلى أن يصرف في مزاولتها زمنًا

بعيدًا، وقد كان أهل الأدب يقولون: إنهم لم يروا قطُّ خطيبًا بلديًّا إلا وهو في أول تكلُّفِه للخطابة مُستثقَلاً، إلى أن يَتوقَّحَ وتستجيبَ له المعاني، ويتمكَّنَ من الألفاظ، إلا شبيب بن شَيْبَة، فإنَّه بدأ بحلاوةٍ ورشاقة، وسُهولة وعُذوبة.

وإذا كانت الخطابةُ صناعةً تتعاصَى على طُلابها إلا أن يأتوها عن طريق الدُّرْبَة والممارسة، فمن اللائق برجالٍ يتقلَّدون في هذه الأمة أَمْرَ التعليم، أن يفرِضُوا لها من أوقات الدراسة نصيبًا كافيًا، حتى تُخرِجَ لنا هذه المعاهدُ والمدارسُ خطباءَ يقودون الأمة إلى حيث تلقى السِّيَادة والعَظَمة".[١]

[١] – الخطابة عند العرب، لمحمد الخضر حسين (المتوفى: ١٣٧٧ هـ): ١٨٧-١٨٩

(وجه الشَّبه بين العقل وخزان الماء)

هناك تشابهٌ بين العقل وبين خزانِ ماءٍ كبير، له صنبورٌ عاث عليه الزمن، فكثر الغرب والوسخ في داخلِه، ومن رآه ظنه سليمًا، لأنَّ العيب في المجرى لا في ذات الصنبور، فإذا احتاج أحدٌ للشُّرب منه لا يكاد يخرج منه الماء، فيظنّ أنّ الخزان قد نضب عنه الماء، والعيب ليس في الخزان ولا في الصنبور.

وكلّما كثر استعمال الصنبور اتَّسعت الفتحة ودرّ وروي الشارب، وإذا أزيل ما فيه من الشوائب خرج منه الماء الغزير الذي يروي الجماعات من الناس، واتصل الصنبور بالخزان وحسنت العلاقة بينهما بعد كانت هناك فجوة.

وهكذا العقل واللسان والرابط بينهما، فعقولنا مليئة بالعلم والكلمات والعبارات والأدلة والتجارب، وألسنتنا سليمةٌ، ولكننا حينما نريد الحديث أمام الناس لا يكاد العقل يفتح مغاليقه ويعطي دُرره وكنوزه؛ لأنّ اللسان لم يُعَوِّد العقل جلبّ ما فيه، بل اللسان يغرف من المكتوب، والرابط بينهما العين، فيظل العقل مُعطّلا، واللسان خَرِبًا، والعيب ليس فيهما، بل في قلة الصلة بينهما، فتعطلا جميعًا أو تعطّل أحدهما.

وكلما أكثرنا الحديث أمام الناس، وأعطينا اللسان حقّه في أنْ يغترف بالعقل ويتَّصل به: أزلنا الرواسب التي تمنع اللسان من الاتصال بالعقل، وجَلَب ما فيه من الكنوز والدرر، وحسنت العلاقة بينهما، وتصادقا بعد طول انقطاع، وإذا اصطلح اللسان والعقل أدى ذلك إلى قوةِ بيانٍ، وحسنِ منطق، وقدرةٍ على احتواء المواقف.

وقد قال أبو هلال العسكري رحمه الله: أول آلات البلاغة: جودةُ القريحة وطلاقة اللسان، ويأتي ذلك بالتدرب والمجاهدة.[١]

[١] – سيأتي بسط كلامه.

(المقصود بالارتجال)

المقصود بالارتجال أمران:

الأمر الأول: أن يخطب بلا ورقة مطلقًا.

الأمر الثاني: أن يخطب وبين يديه ورقة كتب فيها أهم ما سيتكلم عنه، وهذا أفضل في البداية بكثير؛ لأنه أسلم من التشتت والإطالة، ومن الارتباك الذي قد يسببه نسيان بعض الأدلة أو الفقرات.

"وفي الناس مَنْ يقفُ ليخطب فَتَنْهَالُ عليه المعاني، وتتسابقُ إليه الألفاظ، فيسترسلُ في القول دون أن يُدرِكَه حَصَرٌ أو يَتعثَّرَ في لَجْلَجَةٍ.

وفي الناس مَنْ تجيئُه المعاني على مَهَلٍ، وتتوارد عليه الألفاظ في تباطؤ، فلا يحسن أن يخطب إلا بعد أن يُعِدَّ لمقام الخطابة مَقَالاً".[١]

[١] – الخطابة عند العرب، لمحمد الخضر حسين: ١٩٨

(مزيا الارتجال وآفات القراءة من ورقة)

"من الناس من يكتب الخطبة ثم يلقيها بالقراءة في الورقة التي كتبها فيها، وهذه الطريقة في الحقيقة لها آفات وعيوب كثيرة، فلن تستحل الأفكار دمًا يجري في عروق الخطيب إلا إذا مارس الحياة، وذاق حلوها ومرها وعاش التجربة التي يحكيها، عندئذٍ يمكنه أن ينقل الأفكار إلى الآخرين بكل ما حولها من انفعالات وإيجابية، تحمله على تنفيذها في دنيا الواقع.

أما خطيب الورقة فهو محروم من هذا كله، بعيد عن هذه الساحة الحافلة بالحركة والنشاط.

إن اللفظ والصوت والإشارة بل والهيئة كل أولئك عوامل تأثير لا بد منها؛ كي تحول المستمعين من وضع إلى وضع، وتنقلهم من التلقي الرتيب لينهضوا مسارعين إلى ما دعاهم إليه الخطيب.

وخطيب الورقة بنبرته الرتيبة ووصفه الآلي لا يصل إلى ما ينبغي أن يكون.

إن صوته يمضي بالمستمع على نبرة واحدة، تفرض عليه النوم أحيانًا.

إنه مشغول بالنظر إلى ما خطه قلمه في الورقة خشية الزلل، وإذًا فلا تلتقي عينه بالمستمع الذي يحس بأن شخصًا آخر يحدثه غير هذا الخطيب الذي يراه، فلا رابطة بين الخطيب وبين المستمع".[١]

وللارتجال أثرٌ كبيرٌ في تفاعل الخطيب وحماسِه، وهذا يُؤدّي – بلا شك – إلى تأثر وحماس وانفعال المستمعين، والعكس بالعكس.

---

[١] – الخطابة في موكب الدعوة، للدكتور محمود عمارة: ١٢٨–١٣٠

وإذا أردت أن تعرف الفرق بينهما: فاجعل بين ناظريك الطلاب في الإذاعة المدرسيّة، فإنّ جلّ من يقرأ بورقة يكون أسلوبُه ضعيفًا، ولو كان قويًّا وصوته جهوريًا فَنَقْصُ تعلّقه بالورقة ونظره إليها وعدم كمال الإقبال على الجمهور لا ينفك عنه.

بخلاف ذالك الطالب الذي حفظ أو اسْتحضر ما سيقول، وأقبل على القوم يخطابهم وهو يلتفتُ يمنة ويسرة بهدوء ورباطة جأش، وتفاعل كبير، فإنك لن تختلف معي بأنّ الحاضرين من المعلمين والطلاب قد انجذبوا لحديثه، وأَسَرَهم بقوة أسلوبِه، وسَحَرَهُم بجميل منطقه وبيانه، وأثَّر عليهم بإقباله إليهم بوجهه، وحرَّك مشاعرهم بقسمات وجهه، وتعبيرات نظراتِه، وتلويح يديه.

ثم إنه من المعلوم أنّه إذا اشتركت حاسة السمع والبصر في التلقي كان ذلك أقوى في الاستيعاب والتأثر ورسوخ المعلومة، بخلاف انفراد أحدهما، فالخطيب الذي يرتجل ويقابل الناس بوجهه ويخاطبهم بعينيه أقوى في التأثير من الذي يخطب بورقة، ولا يتلقَّى عنه الناس إلا عن طريق السمع فقط، وحتى هذا التلقي ليس بذاك القوة كما هو الحال في الخطيب الذي يرتجل، فإن صوته يكون أقوى وأشد تفاعلا.

وقد كانت عادة العربية في الجاهليّة والإسلام إلى عهد قريب: الخطبةَ ارتجالا، بل إنَّ بعض أهل العلم يجعل الخطابة بورقةٍ نوعاً من المعايب إلى وقت قريب، كما ذكر ذلك الشيخ علي محفوظ عضو جماعة كبار العلماء بالأزهر والمتوفى عام ١٣٦١

فقد قال في كتابه " الإبداع في مضار الابتداع: "أما ما يقع من بعض العامة حين نزول الخطيب من على المنبر من التمسح بكتفه وظهره فمما لا أصل له ، وكذلك البيارق التي تنصب على جانبي المنبر والستارة التي تسبل على بابه ، وبعض الخطباء يستتر بهذه البيارق ؛ لأنه لسوء حفظه يقرأ الخطبة في الورق ، وبذلك يضيع أثر الخطبة في نفوس السامعين".[١]

"ومما لاشك فيه أن الارتجال هو الأكمل في الخطابة وهو أصلها ، وهو علامة الملكة والقدرة، وحاجة الخطيب في الجملة إلى الارتجال أمر لاشك في استحسانه ؛ إذ القدرة عليه من ألزم الصفات للخطيب الناجح ، وما ذاك إلا لحاجته أحياناً إلى البديهة الحاضرة ، والخاطر السريع ، الذي يفرضه عليه واقع الأمر فيما لم يكن قد أعدَّ له من قبل".[٢]

ومن المعلوم أنّ من أهمّ خصائص ومميزات الخطابة في الجاهلية: "قوةَ البديهة العربية، والقدرةَ البليغة على الارتجال.

وأول ما تلقاه في المأثور من الخطب العربية، أنك لا تجد الخُطَب قد لُوحظ فيها حسن الافتتاح، وتنسيق الموضوع وتجزئته، ثُمّ حُسن اختتامه؛ فإنّ ذلك شأن الخطيب الذي يُحَبِّر خطبته، ويزوِّر كلامه ويهيئه ويعده، ولم يكن أكثر خطباء الجاهلية كذلك، بل كانوا يرتجلون الكلام ارتجالًا؛ لذلك لم تكن خطبهم منسقة مجزأة؛ بل كانت في الجملة غير متماسكة لعدم تماسك معانيها.

---

[١] – الإبداع في مضار الابتداع: ١٧٧

[٢] – الشامل في فقه الخطيب والخطبةِ: ٨٣

وأسلوبهم الكلامي لا تكلف فيه ولا صناعة، لعدم عنايتهم بتهيئة القول، ولذلك خلا من كل المحسنات اللفظية، كالجناس والتورية؛ وما إلى ذلك مما نص عليه في علم البديع، وكانوا أحيانًا يسجعون في خطبهم".[١]

وهكذا الحال في زمن الخلفاء الراشدين ومن بعدهم، فكانت خطبهم ارتجالاً، "ولم يعمدوا إلى كتابة خطبهم، ولم يعمد الناس إلى كتابتها لعدم اعْتِيَادِهم ذلك". [٢]

حتى قال بعضهم: "لا يعد الخطيب خطيبا إلا إذا كان قادرا على الارتجال، وقد يخطب فيعترض عليه بعض الناس في خطبته، فإن لم تكن له بديهة حاضرة تَرُدّ الاعتراض وتُقَرِّعه بالحجة القوية، ذهبت الخطبة وآثارها".[٣]

[١] – الخطابة، إعداد: جامعة المدينة العالمية: ١٣٥– ١٣٧

[٢] – الخطابة، إعداد: جامعة المدينة العالمية: ١٦٢

[٣] – الخطابة الإسلامية، لعبد العاطي عبد المقصود: ٢٤

(الفوائد التي وجدتها في ارتجال الخطابة)

غالبُ الخطباء يمتلكون قدرةً في إلقاءِ الكلمات أو المحاضرات أو الدروس المؤثرة النافعةِ بفصاحةٍ وبيان، وبلا تلعثُمٍ ولا وخوفٍ، ولكنهم لا يستطيعون أنْ يخطبوا ارتجالاً!

فما الفرق بين الخطبة وغيرها؟

إني لا أجد فرقًا كبيرًا في الحقيقة والواقع، لكن حينما اعتاد الناسُ في بعض البلاد أنْ يخطبوا بورقة، ولم يشاهدوا خطيبًا إلا معه أوراقُة: وقع في نفوسهم أن لخطب الجمعة خاصيّةً وميزةً تختلف عن غيرِها.

والذي يلقي الخطب ارتجالا يجد فيها من اللذة والمتعةِ والحماس ما لا يجده في غيرها؛ وذلك لكثرة المستمعين المنصتين، الذين قدموا من كل حدب وصوب لاستماع مواعظه وتوجيهاتِه، وهذا من أعظم ما ينشده العلماء وطلاب العلم والدعاة إلى الله.

ومن الفوائد التي وجدتها في ارتجال الخطابة:

أولا: الشوق ليوم الجمعة لإلقاء الخطبة، بعد أن كانت همًّا؛ وذلك لأني لا أتكلف في إعدادها وإلقائها، ولأني أشعر بأن كلامي يصل إلى قلوب الكثير من المستمعين، حيث أرى وجوههم تتجه صوبي، وقسمات وجوههم تتأثر عند بعض مواعظي، وهذا ما جعلني أحبّ لقاءهم والحديث إليهم.

ثانيًا: الطلاقة في الإلقاء.

ومن اعتاد الخطابة ارتجالا سهل عليه – بعون الله وتوفيقه – استحضار الكلمات والعبارات المنمّقة، وتواردت عليه الجمل بلا تكلّف جلبها، وهذا من

أعظم أسرار ما نراه من طلاقةِ وفصاحةِ وقوةِ بيانِ بعض الخطباء، حيث يخبطون ويتكلمون مدة طويلة بلا ورقة بكلام فصيح بليغ، بلا تردد ولا تلعثم.

ولم يَحْصلوا على ذلك بكثرةِ محفوظاتِهم من الشعر والعلم، ولا لِكثرة قراءتهم وغزارةِ ثقافاتهم، فهناك أمثالهم ممن قرؤوا وحفظوا، ومع ذلك لا يُستطيعون الكلام بطلاقة، ويجدون غاية الحرج والتكلف والصعوبة حينما يُلْجؤون إلى التحدث أمام الناس.

وكثيرًا ما يجد بعض طلاب العلم والمشايخ القلق إذا دُعوا لإلقاء كلمة أو محاضرة خاصة أمام جموع غفيرة، ويزداد القلق والتوتر: إذا كان ذلك بشكل مفاجئ، ولو أنهم اعتادوا الخطابة بلا ورقة، وأكثروا من إلقاء ارتجال الكلمات والخطب لَمَا وجدوا أي قلق وتوتر.

ثالثًا: سهولة إلقاء الكلمات والخطب التي تأتي فجأة دون سابق إعداد؛ لأنه مع كثرة الإلقاء بلا ورقة وكثرة حفظ الأدلة والشواهد الشعرية ونحوها: يكتسب الخطيب والداعي إلى الله ملكةً ومخزونا علميا ولغويًّا، فلا يجد أيّ مشقة وصعوبة في الإلقاء متى شاء، وفي أي وقت شاء.

رابعًا: سهولة إعداد الخطب والكلمات.

وكتابة الخطبة من أشق الأمور؛ لأنَّ الخطيب كثيرا ما يحتار في اختيار الأدلة والعبارات والكلمات، ويدقق ويُعيد فيها النظر.

أما الذي يرتجل الخطبة: فإنه مع طول المران وكثرة التجارب: تتوارد عليه الكلمات والعبارات المناسبة أثناء الخطبة، والتي قد تكون لم تخطر على باله، ويرى أنها أحسن مما لو استعد وكتبها.

خامسًا: الاستمتاع العجيب أثناء الإلقاء، حيث أشعر أنّ المواعظ والنصائح تخرج من قلبي، وتقع في قلوب المستمعين، حيث أراهم ينصتون بحماس، ويتفاعلون مع ما أطرحه عبر هزّ رؤوسهم، وقسمات وجوههم، وهذا مما زاد في حماسي وتفاعلي أثناء الخطبة، وهو أمرٌ لم أجد ولا ربعه حينما كنت أخطب بورقة.

سادسًا: تنمية ملكة الحفظ والذاكرة، فمما لا ريب فيه أنّ من يخطب بلا ورقة، ويُعدّ إعداد جيّدًا للخطب: سيمرن ذاكرته بشكل مستمر، وفي الأسبوع مرة على الأقل، وسينشط حافظته وذهنه، مما يكون له الأثر الكبير في تقوية هذه الملكة وتنميتها.

ولا أقول هذا تنظيرًا ولا نقلا عن غيري، بل لقد جربت ذلك، فقد كنت في السابق إذا رأيت بعض الخطباء يخطب ارتجالا بلا ورقة أتعجب منه، وأقول في نفسي: كيف استطاع ضبط المعلومات واستحضارها وترتيبها، ومواجهة الجموع الغفيرة من الناس، الذي قد يُصيب بالإرباك، وينسى ما كان قد أعدّه؟

ولكن بعد أنْ منّ الله عليّ بالارتجال – بعد الخطوات التي أمضيتها في سبيل الحصول على ذلك – هان عليّ الأمر، وعرفت السبب، وأصبحت – بحمد الله – أستحضر ما أريد إلقاءه ولو لم أعدّ إلا أعدادًا يسيرًا، وإذا رسمت في عقلي أركان الخطبة وفروعها وكتبتها قبل إلقائها: ألقيتها في الخطبة وكأني أراها، وهذا ليس خاصًّا بي، بل كلّ من يتحدث أو يخطب ارتجالا حصل له ذلك وأكثر.

(خمسُ خطوات تُسهّل وتذلّل الطريق نحو الارتجال)

هناك خمسُ خطوات تُسهّل وتذلّل الطريق نحو الارتجال، ومن قام بها أتم القيام فإنه سيأتي عليه يومٌ بمشيئة الله يستطيع ارتجال الخطب وغيرِها، **وهي:**

أولا: الدعاء الصادق في الإعانةِ على ذلك، واللجأ إلى الله تعالى بإخلاص وتضرّع.

ثانيًا: صدق التوكّل عليه في ذلك، وحسن الاعتماد عليه، والله عند ظنّ عبدِه به، ومن توكلّ عليه فهو حسبُه وكافيه ما يُهمه ويطلبُه.

ثالثًا: سماع الخطباء المرتجلين المتميّزين؛ "لأن السماع يحفز من عنده استعداد الكلام إليه، ولأن فكر البشر يتغذى بالتقليد والمحاكاة".[١]

رابعًا: ارتجال الخطبة لوحدك، ولو كان في المسجد عبر مكبر الصوت الداخليّ فهو أفضل، وإذا كان على المنبر فهو أفضل بكثير.

خامسًا: ارتجال الكلام من وقت لآخر أمام الآخرين، عبر إلقاء الكلمات في المساجد، ومجامع الناس في مجالسهم عندما يكون الأمر مناسبًا؛ ليفك عقدة لسانه ويزيل حبسة الحياء.

"فإذا دأب على ذلك واتَتْه فطرة قوية واستعداد قويم على القول على البديهة، من غير تحضير عند الاقتضاء".[٢]

واعلم أنّ "من انقطع إلى شيء أتقنه".[١]

---

[١] – الخطابة، إعداد: جامعة المدينة العالمية: ٤٣

[٢] – الخطابة، إعداد: جامعة المدينة العالمية: ٤٣

فإذا أردت إتقانَ مهارة الإلقاء والحديث فانقطعْ برهةً مِن الزمن لِتَقْرأ في هذا الفن، وتتدرّبَ على الإلقاء مرارًا وتكرارًا، وسوف تُتْقنه وتزول عنك الرهبة والخوف من مواجهة الناس والحديث إليهم إنْ شاء الله.

وكثيرٌ من الأمور يراها بعض الناس صعبة ومعقّدة، كالعلم، وإلقاء الكلمات والمحاضرات والخطب الارتجاليّة، والتأليف، والحفظ، وجَرْد الكتب الطويلة، إنما سببها: أنهم لم يتفرَّغوا لها ويأتوها من أبوابها.

ولهذا يجد بعضُ أهلِ القرى والمدنِ الصغيرةِ صعوبةً في معرفةِ طرقِ المدن الكبيرة وأحيائِها، وكلّما دخلها خرج منها متذمرًا محبطًا، وازدادت قناعته بصعوبتها، فإذا طلب من أحدِ أهل المدينة الخبير العاقل أنْ يُعطيه شيئًا من وقتِه، فيشرح له الطرق وكيفية ضبطها، ويذهب معه ويريه كيفية عبور الدَّوَّارات الضخمة، والشوارع المتشابهة، وصبر على ذلك عدة أيام وعزم على فهم الطرق وضبطِها ولم يستصعب ذلك: فسوف يُتقن الطرق ويعرف التعامل معها، وستزول عنه كراهة المدينة، والتسخط منها.

وإن لم يفعل ذلك: فسيظل كارها للمدينة، وكلما قدم إليها لحاجة خرج منها ذامًّا لها، كارهًا الرجوع إليها، مع شدة حاجته إليها.

=

[١] – اللغة والأدب للطناحي رحمه الله: ١/١٨٢

وهكذا الإلقاء، فإذا لم تنقطع لهذا الفنّ وتُكثر ممارسته ومقابلة الجمهور وتكسر حاجز القلق والخوف من الخطأ: فسوف تظلّ متثاقلاً للإلقاء، حاملاً الهمّ عندما يُطلب منك كلمة أو محاضرة أو خطبة دون سابق تحضير وإعداد.

(السلبيات في ارتجال الخطابة، وسُبُلُ الخَلاصِ منها)

لا شكّ أنّ في قراءة الخطيب من ورقةٍ فيها منافعَ كثيرة، وقد تكون أنسب لكثير من الخطباء والمتحدّثين من الارتجال، وهذا أمرٌ مشاهد وواقع.

ولكن مع ذلك: لم أجد من فضّل القراءة على الارتجال إلا عند عدم القدرة على الارتجال كما ينبغي، وإلا فمن يستطيع الإلقاء بلا ورقة، ويستحضر ما يريد قوله، بلا تردد ولا ارتباك ولا توتر، أفضل باتفاق العامة والخاصة ممن يقرأ من ورقة، وأشد حماسًا وتأثيرًا.

وأما ما يُظن من السلبيات في ارتجال الخطابة فيُمكن تلافيها، ومن ذلك:

أولاً: الوقوع في الحرج عند الخطأ أو التلكُّؤ.[١]

وهذا أمر طبيعي جدًّا، ومن أراد الحصول على معالي الأمور دون عقبات فقد رام المستحيل، ومع كثرة اللجأ إلى الله ودعائه، وطول المران وبذل الوسع يُكسبك الله تعالى الفصاحة وطلاقة اللسان، حتى إنه يندر أن تتردد أو تخطئ.

ثانيًا: الإطالة في الخطابة.

ويُمكن ضبط الوقت بوضع ساعة تحسب الوقت، ومع مرور الزمن سوف تتعوّد على التقيّد بالوقت الذي اعتدت عليه.

ثالثًا: ضياع الخطب؛ لأنها لم تكن محفوظة مكتوبة.

---

[١] – تَلَكَّأَ في الأمر أو عنده، أَي تَوقَّفَ وتَبَاطَأَ.

ويُمكن حفظ الخطب بالتعاقد مع بعض الأشخاص الذين يعملون في تفريغ المواد الصوتية، وقد يكون في هذا تكلفة عليك، ولكن المال يرخص في سبيل الحصول على المقامات العالية، والغايات النبيلة.

واعلم أنّ هناك الكثير من الخطب التي اعتنى بها أصحابها، وطبعوها ونشروها، ولكنّ نفعها محدود وضعيف، والغالب أن المستفيد منها خطيب ينقل منها، أو يستفيد من طريقة مؤلفها في العناوين أو الأسلوب أو نحو ذلك.

ووالله إنّ نفع وأثر خطبةٍ واحدة من خطيب مؤثّر ناصح، تسجّل وتُنشر أنفع بكثير من كثير من هذه الكتب، ولكلّ أهلِ زمانٍ ما يُؤثّر فيهم، ولا يختلف اثنان بأنّ أعظم المؤثرات في هذا الزمان: مواقع التواصل الاجتماعي، بما فيه من صور ومواد مرئية ومسموعة، فهذه هي التي تُؤثر في الناس وخاصة الشباب والفتيات، الذين عزف جلّهم عن القراءة ، واتجهوا صوب مواقع التواصل، فقل لي بربك: ماذا سيغيّر فيهم كتاب يحتوي على خطب الجمعة؟ ومن سيقرؤه منهم؟ وكيف سيصل إليهم؟

ولكن ستؤثر فيهم مادة صوتيّة مؤثرة من خطيب فصيح يدخل كلامُه قلوب الناس، وستؤثر فيهم مادة مرئية مؤثرة من خطيب ارتجل خطبته بأسلوب يشدّ الحاضرين والمشاهدين، وهذه المواد تنتشر انتشار النار في الهشيم.

رابعًا: عدم الدقة في ترتيب موضوع الخطبة وتسلسل أفكارِها.

وهذا غير مسلّم، فالخطيب البارع الخبير يكون دقيقًا جدًّا في ترتيب موضوع الخطبة، وإلقائِها بسلاسة وتسلسلٍ في عرضها.

ومع ذلك أقول: الناس كلهم – إلا ما ندر – لن يحتاجوا إلى هذه الدقة في الترتيب والتسلسل المنطقي في عرض الخطبة، بل يحتاجون إلى موعظةٍ تُوقظُ قلوبهم، وحكمةٍ تنفعهم في دينهم أو دنياهم، ونصيحةٍ تُثير هممهم، وفائدةٍ تصحح معلوماتِهم.

وإذا خرج الناس بعد سماع خطبتك لن يقولوا: ما أجمل ترتيب خطبته، وحسن تسلسلها، ولو قالوا ذلك فماذا سيؤثر ذلك عليهم في دينهم ودنياهم؟

ولكنهم إذا خرجوا وجلس بعضهم إلى بعض قال أحدهم: لقد ذكر الخطيب آية فشرحها شرحا أثر عليّ، ويقول الآخر: ذكر الخطيب قصة مؤثرة بكيت بسببها، ويقول الآخر: ذكر حديثًا لم أكن سمعته من قبل، ويقول الآخر: ذكر حكما شرعيّا في تلك المسألة كنت أجهله، أو كنت معتقدا خلاف ما ذكر.

فلذا: نصيحتي لك – أخي الخطيب – أنْ تجعل نفع الناس أهم مقاصدك، ونفعهم يكون بحسن مواعظك، وسهولة أسلوبك، واختصار خطبك، وصدق لهجتك، ولن يكون بتكلف السجع، أو حشو الغريب، أو المبالغة في التَّنْميق[1] وحسن الترتيب.

[1] – نمق: نَمَّقْتُ الكتاب تَنميقاً: حسنته وجودته. العين: ٥/ ١٨١، مادة: نمق.

(طريقتي قبل الخطبة)

من عادتي القيامُ بعدة أمور قبل الخطبة، التي أستعين بالله تعالى أولا ثم بها للوقوف على المنبر وارتجال خطبي، وهي:

أولاً: أعدّها قبل إلقائها بزمن طويل غالبًا، وقد يكون بين إعدادي لها وبين إلقائها أشهر – وهذا هو الغالب – وقد يكون أعوامٌ.

وذلك أنه حينما يخطر لي موضوعٌ، أو أمُرّ خلال قراءتي بفائدةٍ قيِّمة، أو حديثٍ اسْتوقفني، أو آيةٍ تأملتها: فإني أدون ذلك مُباشرة دون تأخير، حيث تكون المشاعر جيَّاشة، والأفكار حاضرة ومُترابطة، ولو أجلت الكتابة حينها: لضاعت الأفكار والخواطر، وصعب تذكرها واسْتحضارها، ثم أكتب ما يجود به الخاطر، ثم أبدأ بعد ذلك بجمع المادة العلمية – دون تكلّف – من الكتاب والسنة وكلامِ أهل العلم الذين وقفتُ على كلامهم خلال قراءتي لكتبهم أو الكتب التي نقلت عنهم، وقد أبحث في المكتبة الشاملة أو الشبكة العنكبوتية عند الحاجة.

فما وجدْتُه متعلقًا بموضوع الخطبة: أخذته ووضعته في ملف الوورد في الحاسب، بدون ترتيب وتدقيق.

وهكذا أفعل دائماً فيما يخطر أو يمرّ عليّ من المواضيع والفوائد، فأدون حينها ما يجود به الخاطر، وأبحث وأكتب ما أستطيعه، ثم أتركه وأمضي في قراءتي المعتادة، فإذا وجدت فائدةً أو آيةً أو حديثاً مُتعلقًا بأحد الخطب التي كتبتها أو

كتبت بعضها: أضفتُه إليها، فربما مَكَثَتِ الخطبةُ عندي عدَّةَ سنواتٍ أزيد وأنقص فيها، وأحياناً ألقيها في درسٍ أو مُحاضرة أو كلمة، فيُفتح لي أثناءها من اللطائف والفوائد ما لم يخطر لي قبلها، وأستذكر أشياءً كنت قد نسيتها، فأُلْقيها حين أُلقيها في الخطبة وهي جاهزةٌ مُكتملةٌ – بقدر الإمكان –.

ثانيًا: ألقيها كاملة أو مُجزّأةً عبر كلمات في المساجد، والهدف من ذلك:

أ– ترسيخ المعلومات وحفظها.

ب– نشرها بين الناس، وخاصة في المساجد التي لا تكون قريبة من الجامع الذي أخطب فيه، والغالب أن جماعته لا يحضرون عندي.

ج– الزيادة في استقصاء الموضوع، والغالب أني إذا ألقيتُها يلوح لي أثناء الكلمة أو بعدها أمورٌ مهمة ينبغي الحديث عنها.

ثالثًا: ألقيها يوم الجمعة قبل موعد الخطبة بساعتين تقريبًا كإلقائي إياها في الخطبة، حيث أقف على منبر صغير جهزته عندي، وعبر مكبرِ صوت في مكتبتي، **والهدف من ذلك**:

أ– ضبط الوقت، حيث أحسب الوقت وأحذف بعض أجزاء الخطبة إذا تجاوز الوقت المعتاد، وأزيد إذا كان أقل من الوقت المعتاد.

ب– إتقان الأداء؛ لأنّ إلقائي لها قبل ذلك من أعظم أسباب سلامتي من الأخطاء والتردد الذي يقع فيه كثيرٌ ممن يخطب ولو بورقة.

ج– ضبط نبرات الصوت، حيث أزن نبرات الصوت، والمواضع التي ينبغي فيها رفع الصوت أو خفضه، وسرعة الكلام أو بُطؤه..

رابعًا: لا أتكلّف في البحث والإعداد، وإنما همّي أنْ أجمع مادّةً تنفعني أولا، ثم تنفع المستمعين على اختلاف طبقاتهم.

"ومن الأوصاف التي إذا كانت في الخطيب سمّي سديداً، وكان من العيب معها بعيداً، أن يكون في جميع ألفاظه ومعانيه جارياً على سجيته، غير مستكره لطبيعته، ولا متكلف ما ليس في وسعه، فإن التكلف إذا ظهر في الكلام هَجَنَه[١]، وقبَّح موقعه؛ وحسبك من ذم التكلف أن الله سبحانه أمر رسوله – صلى الله عليه وسلم – بالتبرؤ منه فقال: {قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ}".[٢]

قال الشاطبيّ رحمه الله: مَنْ نظر في استدلالِ السَّلَفِ الصَّالِحِ عَلَى إِثْبَاتِ الْأَحْكَامِ التَّكْلِيفِيَّةِ؛ عَلِمَ أَنَّهُمْ قَصَدُوا أَيْسَرَ الطُّرُقِ وَأَقْرَبَهَا إِلَى عُقُولِ الطَّالِبِينَ، لَكِنْ مِنْ غَيْرِ تَرْتِيبٍ متكلَّف، وَلَا نَظْمٍ مُؤَلَّفٍ، بَلْ كَانُوا يَرْمُونَ بِالْكَلَامِ عَلَى عَوَاهِنِهِ، وَلَا يُبالون كيف وقع في تَرْتِيبِهِ، إِذَا كَانَ قَرِيبَ الْمَأْخَذِ، سَهْلَ الْمُلْتَمَسِ. ا.هـ[٣]

وهذه العبارة لها أعظم الأثر عليّ في ترك التكلف في إعداد خطبي، وإلقاء كلماتي، وقد رأيت التكلف في كلّ شيء ضارًّا وشاقًّا، ويؤول بصاحبه إلى الانقطاع أو الملل والفتور غالبًا.

ومعنى: رَمَى الكلامَ على عَواهِنِه : أَي لم يتكلف في اختياره وأسلوبه.

---

[١] – هجنَ الْكَلَام وَغَيره: أي صَار معيبًا مرذولاً.

[٢] – البرهان في وجوه البيان، لأبي الحسين إسحاق بن إبراهيم الكاتب: ١٦٨

[٣] – الموافقات للشاطبي: ١/ ٧٠

قال بعضهم: يقال: هو يُلقِي الكلامَ على عواهنه، إذا لم يبال كيف تكلَّم.

قال ابن فارس رحمه الله في مقاييس اللغة[١]: وهذا قياسٌ صحيح، لأنَّه لا يقوله بتحفُّظ وتثبُّت. ا.هـ

والتكلف: معالجة الكلفة، وهي ما يشق على المرء عمله والتزامه لكونه يحرجه أو يشق عليه، ومادة التفعل تدل على معالجة ما ليس بسهل.

وهو التعمّق المذموم شرعًا وعقلا، قال أَنَس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وَاصَلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَوَّلِ شَهْرِ رَمَضَانَ، فَوَاصَلَ نَاسٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَبَلَغَهُ ذَلِكَ، فَقَالَ: «لَوْ مُدَّ لَنَا الشَّهْرُ لَوَاصَلْنَا وِصَالًا، يَدَعُ الْمُتَعَمِّقُونَ تَعَمُّقَهُمْ.[٢]

"والتعمق : الانتهاء إلى عمق الشيء وغايته ، مأخوذ من عمق البئر ، وهو أقصى قعرها".[٣]

قال الخليل رحمه الله: "الْمُتَعَمِّقُ: الْمُبالِغُ في الأمرِ المنشُودِ فيه، الذي يطلب أَقْصَى غايته".[٤]

والكلام غيرُ الْمُتكلّف: يصل للقلب، ويستفيد منه العامي وطالب العلم.

وأمَّا التكلُّف في اختيارِ العبارات، وسردِ الأقوال، وتنقيح الألفاظ: فإنه يُصيب صاحبه بالْمشقَّةِ والتعب، الذي يؤول إلى انقطاعِه غالبًا، ويُصيب السامع

---

[١] – ٤/ ١٧٦

[٢] – رواه البخاري (٧٢٤١)، ومسلم (١١٠٤).

[٣] – المفهم: ١٦٢/٣

[٤] – العين: ١/ ١٨٧

أو القارئ بالملل والسآمة، وقلة الاستيعاب والفهم، وربما نفّره من الاستماع لمواعظ الواعظين، ونصائح الدعاة والعلماء، والقراءة والمطالعة.[١]

ومن أجمل ما قيل في هذا الشأن ما نقله أبو هلال العسكري رحمه الله عن بعضهم: "أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة، وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش، ساكن الجوارح ، متخيّر اللفظ.. ولا يدقّق المعاني كلّ التدقيق، ولا ينقّح الألفاظ كلّ التّنقيح".

ثم شرحه فقال: قوله: " أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة " وأول آلات البلاغة جودة القريحة وطلاقة اللسان، ويأتي ذلك بالتدرب والمجاهدة.

وقوله: "ولا يدقق المعاني كلَّ التدقيق" ؛ لأنّ الغاية في تدقيق المعاني سبيلٌ إلى تعميتِه، وتعميةُ المعنى لُكْنة.[٢]

وقوله: "ولا تنقّح الألفاظ كل التنقيح" وتنقيح اللفظ أن يُبْنى منه بناءً لا يكثر في الاستعمال.

ويدخل في تنقيح اللفظ: استعمالُ وحشيّه وتركُ سَلْسَلَه[٣] وسهله. ا.هـ[٤]

---

[١] – عِبَاراتٌ تأَثَّرْتُ بِهَا وَغَيَّرَتْ فِي حَيَاتِي للمؤلف: ٣١-٣٣

[٢] – اللُّكْنَةُ: الْعِيُّ فِي اللِّسَانِ.

[٣] –يُقال: كلامٌ سَلْسَلٌ، أي: سَهْلُ الفهم، واضح المعنى، قال ابن فراس رحمه الله: مَاءٌ سَلْسَلٌ وَسَلْسَالٌ وَسُلَاسِلٌ: سَهْلُ الدُّخُولِ فِي الْحَلْقِ لِعُذُوبَتِهِ وَصَفَائِهِ. مقاييس اللغة: ١/ ١٥٢، مادة: سلّ.

[٤] – كتاب الصناعتين، لأبي هلال العسكري: ٧- ٣٠

خامسًا: أدعو الله قبيل صعودي للمنبر أن يرزقني الإخلاص والتوفيق والسداد، وأن ينفعني وينفع غيري بما أقول، فكم من إنسان لم يتّعظ بما يقول، وإن اتعظ فسرعان ما ينسى ما قال، لاسيّما إذا طال به العهد.

وأسأله أن يرزقني الفصاحة والبيان، ورباطة الجأش.

(طريقتي أثناء الخطبة)

وأما طريقتي أثناء الخطبة فهي كالتالي:

أولا: لا أتكلف اصطناع المشاعر ولا كتمانها حين أعيش أحداث القصص والمواقف والعبر، وعلى حسب السِّياق تظهر مشاعري عبر قسمات وجهي، وتعابير عينيّ، واختلاف نبرات صوتي.

وقد كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا خَطَبَ احْمَرَّتْ عَيْنَاهُ، وَعَلَا صَوْتُهُ، وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ، حَتَّى كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ يَقُولُ: «صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ».[١]

فينبغي للخطيب "أن يروض نفسه على تصوير المعاني، وأن يجعل من نغمات صوته، وارتفاعه وانخفاضه دلالات أخرى فوق دلالة الألفاظ، وليعمل على أن يكون صوته ناقلا صادق النقل لمشاعر نفسه، وليمرنه التمرين الكافي على أن يكون حاكيا صادق الحكاية لمعاني الوجدان، وخواطر الجنان، وليعلم أن لا شيء كالصوت يعطي الألفاظ قوة حياة، وأنه إذا أحسن استخدامه خلق به جوًّا عاطفيًا يُظِلُّ السامعين، وبه يستولي عليهم".[٢]

"وقد يتكلَّف الرجلُ أن يتكلَّم في هدوء وسكون، ويحرص على أن لا يتحرَّك من جوارحه حين يتحدث غير شفتيه ولسانه، وإنما تتيسَّر هذه الهَيْئةُ لمن يتحدَّثُ في راحةِ بالٍ وقرارةِ جَأْشٍ، وليس هذا شأنَ الخطيب المطبوع، وإنما شأنه تَوَقُّدُ الفؤاد، وهياج العاطفة".[٣]

---

[١] – رواه مسلم (٨٦٧) من حديث جابر رضي الله عنه.

[٢] – الخطابة الإسلامية، لعبد العاطي عبد المقصود: ٢٥

[٣] – الخطابة عند العرب، لمحمد الخضر حسين: ١٩٢

واعلم أنّه كلما كان إلقاؤك طبيعيًّا، ولم تتكلّف فيه: كان أشد تأثيرًا، فكن على سجيّتك التي نشأت عليها، وأسلوبك الذي تُمارسه أثناء الحديث والكلام في غير الخطبة، مع العناية بنبرات الصوت وتحسين الأداء.

وكثيرٌ من الخطباء يجعل للخطبة أسلوبًا مختلفًا تمامًا عن أسلوبه الذي اعتاد عليه، وكأنه يرى أنّ للخطابة أسلوبًا رتيبًا، ونمطًا فريدًا خاصًا بها، وهذا يُفقده التأثير على المستمعين، والوصول إلى قلوبهم.

ثانيًا: لا أسرد الخطبة سردًا، والغالب أني أخطب بتمهّل، وأقف وقفات يسيرة عند الحاجة إليها، وأهتمّ بمستوى نبرات الصوت حسب الموضع اللائق به، فأرفع الصوت وأسرع في الحديث إذا كان المقام يقتضي ذلك.

"فالتمهل يجعل الصوت يسري إلى السامعين جميعًا بأيسر مجهود متناسب مع المكان والعدد، بينما الإسراع يجعل الكلمات تحتاج إلى مجهود صوتي أكبر؛ ليصل الكلام إلى الآذان".[١]

ثالثًا: أحسب وقت الخطبة بدقة، ولا أتجاوز ربع ساعة مهما كان الأمر، والغالب أني لا أتجاوز ثلاث عشرة دقيقة.

رابعًا: أجعل الخطبة مكونةً من أركان وفروع، وأحفظ الأركان لتسهل عليّ الفروع، والغالب أني أفتتح الخطبة بقصة أو حديث أو آية، تكون بوابة للدخول إلى أركان وفروع الخطبة.

---

[١] – الخطابة الإسلامية، لعبد العاطي عبد المقصود: ٢٥

فمثلا: خطبت عن موضوع: أهميّة تجديد الإيمان، فقمت بكتابة أركان الخطبة وفروعها لأحفظها وأتقنها، وهي كالتالي:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «إِنَّ الْإِيمَانَ لَيَخْلَقُ فِي جَوْفِ أَحَدِكُمْ كَمَا يَخْلَقُ الثَّوْبُ، فَسَلُوا اللَّهَ – تَعَالَى – أَنْ يُجَدِّدَ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِكُمْ».

رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ، قال الهيثمي: إِسْنَادُهُ حَسَنٌ، وصححه الألبانيّ.

١– وجه الشَّبه بين الإيمان والثوب، فالثوب يبلى ويتسخ، فيحتاج الإنسان أولا إلى غسله، ثم تنظيفه بعد ذلك، ثم المحافظة على نظافته، ومهما حرص الإنسان عليه فسوف يتسخ، فيحتاج إلى تكرار غسله وتطييبه، وهكذا الإيمان.

٢– أهميّة تجديد الإيمان:

– بعض الناس منذ عقل الإيمان لم يجدّده ولم يتعاهده.

–كان السلف يجددون إيمانهم، كابن تيمية رحمه الله، حيث كان إذا أُثني عليه في وجهه يقول: والله إني إلى الآن أجدد إسلامي كل وقت، وما أسلمت بعدُ إسلاما جيدا.

٣– وسائل تجديد الإيمان:

أ– التوبة.

* كان النبي يكثر من الاستغفار.

ب_ المبادرة إلى الأعمال الصالحة والإكثار منها، فهي تزكي النفس، وتقوي الإيمان.

* ذكر الآيات الحاثة على المبادرة إلى الأعمال الصالحة.

الخطبة الثانية:

٤- ثمرات تجديد الإيمان:

أ- محبة الله له.

* [إن الله يحب التوابين].

ب- زيادة الإيمان، وإذا زاد الإيمان ازداد المؤمن رفعة في الآخرة، وصلح عملُه، لأن في القلب مضغة إذا صلحت...

ولم أتجاوز في هذه الخطبة اثني عشرة دقيقة مع المقدمة والخاتمة والدعاء، وقد استوفيت الموضوع - بلا تكلّف وتدقيق في الاستقصاء -، وقبل أن أخطب بها، ألقيتها في المساجد عبر كلمات وعظيّة، وقد قسمتها إلى قسمين، ألقيت كلّ قسم في مسجد؛ لأن الكلمات في المساجد لا ينبغي الإطالة فيها.

فاستفدت من ذلك عدة أمور:

أولا: تثبيت ورسوخ الموضوع في ذهني.

ثانيًا: السلامة من التلعثم الذي يُسبّبه عدم الإعداد الجيّد والجديّ، ومقام الخطبة يستدعي القوة في الطرح، وعدم التلعثم والتلكّؤ، بخلاف الكلمات فالأمر فيهتا أهون بكثير، فالخطأ فيها مغتفر ومعتاد بخلاف الخطبة.

ثالثًا: نفع الناس في هذا الموضوع المهم.

رابعًا: عدم التكلف في إعداد الخطب؛ لأني أُلْقيها قبل ذلك.

خامسًا: استدراك أو تصحيح ما طرحتُه في الكلمات، فكثيرًا ما يفتح الله لي أمرًا مهما لم يخطر على بالي أثناء الإعداد، ولم يفتح لي إلا بعد أو أثناء

الكلمة، فإذا ذهبت للبيت قيدت وصححت وأضفت، فألقي الخطبة – التي يحضرها أضعاف من حضر كلمتي– وقد استوعبت الموضوع، واطمأن قلبي لطرحي، لاسيما والخطبة تسجل وتُنشر.

(مهارات تحسين الذاكرة)[١]

من مقومات الخطيب الناجح قوة ذاكرته، وجودة استحضاره عناصر خطبته.

إن قوانين التذكر الطبيعة بسهلةٌ جداً، وهي ثلاثة فقط، وكل ما يسمى بجهاز الذاكرة يقوم على هذه القوانين:

١. التركيز.

٢. التكرار.

٣ . ترابط الأفكار.

أولاً: التركيز:

إنَّ أول قانون للذاكرة هو: الحصول على تصوّر راسخ واضح عن الشيء الذي ترغب في تذكره، ومن أجل القيام بذلك، يجب أنْ تركز تفكيرك في الموضوع الذي تريد طرحه والتحدث عنه.

فإذا أردت أن تتكلم عن الأخلاق: فحدد الأركان الأساسيّة للموضع، وركز عليها تركيزًا شديدًا، وانطلق منها نحو الفروع، من الأدلة والأمثلة ونحوها.

إنّ خمس دقائق من التركيز الشديد تسفر عن نتائج عظيمة أكثر من قضاء عدة أيام في التأمل.

حينما يأتيك ثلاثة من الرجل ويُعرّفونك بأنفسهم، فتنسى اسم واحد منهم بعد دقيقتين، فليس السبب من ضعيف ذاكرتك، بل من ضعف تركيزك واهتمامك بهم.

---

[١] – يُنظر: فن الخطابة: ٥٣–٦٠، مع التصرف.

ثانيًا: التكرار:

باستطاعتك أن تتذكر كمية كبيرة من المعلومات إذا كررتها جيداً، فلذا أعد وكرّر المعلومات التي تريد أن تتذكرها.

واستخدم الكلمات والمعلومات الجديدة في حديثك، وادع الغريب باسمه إذا أردت أنْ تتذكره.

ثالثًا: ترابط الأفكار:

إنّ سر الذاكرة الجيدة هو تكوين عدة أفكار مترابطة.

قال أحد الكتاب: كنت أستظهر المحاضرات غيباً في كل ليلة، وكان علي في كل ليلة أن أستعين بصفحة من الملاحظات كي لا أرتبك، وكانت الملاحظات تتألف من بدايات الجمل من المحاضرة..

ثم اكتشفت وسيلة أخرى للحماية، فحفظت أول الأحرف غيباً.

بعد ذلك خطرت لي فكرة الصور، فتلاشت مشكلاتي، وخلال دقيقتين رسمت بقلمي ست صور قامت بعمل الجمل الرئيسية تماماً، ثم رميت بالصور بعدما رسمتها؛ لأنني تأكدت أن باستطاعتي إغلاق عيني ومشاهدتها في أي وقت.

فاحرص – أخي الخطيب – على ربط أركان الخطبة بصورة موجودة في ذهن مسبقاً، بتسلسل منطقي يسهل عليك أن تتذكرها.

(طريقتي بعد الخطبة)

وطريقتي بعد الخطبة:

أولاً: أحمد الله تعالى على ما منّ به عليّ من التوفيق في أداء الخطبة.

ثانيًا: أستمع لكل خطبة ألقيتها، استماع ناقدٍ ومتصيّد للأخطاء، وباحثٍ عن الجوانب الإيجابيّة لتعزيزها وترسيخها، وعن الجوانب السلبية لتلافيها والبعد عنها.

وكلّ هذا:

أولا: إجلالاً لمقام الخطبة، فلها قدرها ومكانتها في الإسلام.

وثانيًا: احترامًا للمصلين الذين جاؤوا طاعة لربهم، وتلبيةً لنداء خالقهم، وحبّا لسماع ما عندي.

وما حرصي على إلقاء الخطبة ارتجالا إلا من هذا الباب.

(نصائح عامّة للخطيب والداعي إلى الله)

هذه نصائح أوجهها لك أيها الخطيب الموفق، والداعي إلى الله المسدّد:[١]

[١] – آدابُ طالِبِ الْعِلْمِ وسُبُلُ بِنَائِه ورُسُوخِه للمؤلف: ١٤٧– ١٥٥، وقد زدت عليه هنا الكثير من الزيادات.

(اجعل نُصب عَيْنَيْك عامةَ الناس)

اجعل – رعاك الله – نُصب عَيْنَيْك عامةَ الناس، فهم الأحق والأولى بخطبك ومواعظك، ومتى راعيت نُخَبَهُم وخوَّاصهم، ومُحبيك وطلابك: أدّى بك ذلك إلى عدة محاذير:

الأول: التكلف في اختيار الألفاظ، وتصنع السجع والمواضيع التي تُناسب مستواهم هم دون الأعمّ الأغلب من العامة ونحوهم.

الثاني: حرمان العامة مِمَّا ينفعهم من المواعظ ومُعالجة القضايا الاجتماعيّة؛ لأنك انشغلت بما يهم خواصهم، فهم يرغبون سماع الحديث عن دقائق العلوم والاستنباطات، والجديد والغريب، وبعضهم يرغب سماع الحديث عن السياسة والإغراق في الواقع، ولن ينفعهم ذلك في دينهم ولا دُنياهم.

الثالث: فساد النيّة، فبدلاً من أن تكون خالصةً لوجه الله، أصبحتْ مشوبةً بمراءة الخاصة ومُحبيك، والنظر إلى ما يُعجبهم ويُرضيهم.

فحينما ترى إعجابَ الناس بخطبك، وتسابُقَهم إلى الحضورِ والاستماعِ إليها، لا شكّ أنّك ستراعيهم، وتخطب بما يُرضيهم.

وحينها ينزع الله تعالى منك البركة والقبول، والنفع والفائدة.

والواجبُ عليك أنْ تَخْطُب والعامةُ أهم أهدافك، فهم الذين بأمسّ الحاجة إلى علمك، وهم الذين لن يسمعوا – غالبًا – إلا منك، أمَّا طلابُ العلمِ فإنْ لم يستمعوا إليك استمعوا من غيرك.

بل إنّ بعضهم يستمع استماع ناقد ومدقّق، بخلاف العامة، فهم يستمعون استماع متلهف مُنقاد، فأيّ الفريقين أحقّ بالاهتمام والعناية؟

ولا يعني اهتمام الخطيب بنفع العامة ألا يتطرق لمسائل مهمة قد تكون فوق مستوى كثير منهم، والتي يستفيد منها بعض المتخصصين كطلاب العلم أو المسؤولين ونحوهم.

(إياك والإعجاب بمدح الناس)

احذر من الإعجاب بمدح الناس لك، فإنّ الناس إذا مدحوا أسرفوا، وأنت أعلم بنفسك!

قال ابن الجوزي رحمه الله: والمحنة العظمى مدائح العوام، فكم غرت!.[١]

وليس عيبًا أن تفرح بثناء الناس عليك أو على خطبك، فقد قِيلَ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ يَعْمَلُ الْعَمَلَ مِنَ الْخَيْرِ، وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ؟ قَالَ: «تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ».[٢]

فإِذَا عَمِلَ المؤمن "الْعَمَلَ لِلَّهِ خَالِصًا، ثُمَّ أَلْقَى اللَّهُ لَهُ الثَّنَاءَ الْحَسَنَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ بِذَلِكَ، فَفَرِحَ بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، وَاسْتَبْشَرَ بِذَلِكَ، لَمْ يَضُرَّهُ ذَلِكَ".[٣]

إنما العيب والإثم إذا دخلك العُجب بمدحهم، ففرحت بجهدك وعملك، ونسبت الفضل إلى نفسك، ولم يكن فرحك بفضل الله ورحمته وكرمه الذي ساق الخير لك، وحبَّبه ويسّره لك.

---

[١] – صيد الخاطر: ٦٧

[٢] – رواه مسلم (٢٦٤٢).

[٣] – جامع العلوم والحكم لابن رجب: ١/ ٨٤

(تكلّم بما ينفعهم في دينهم أو دنياهم)

أسْمع مَن جاؤوا يستمعون إلى ما عندك ما ينفعهم في دينهم أو دنياهم، واسْأَلْ نفسك أثناء الإعداد: ماذا سيستفيد الناس في دينهم وأخلاقهم إذا خرجوا من المسجد؟

ماذا سيستفيدون من الكلام في السياسة مثلاً، أو الإكثار من الحديث عن مآسي المسلمين ومُصابهم؟

وماذا سيستفيدون من طرحك لموضوع يكتنفُه الغموض، بسبب حساسيّته وخوفك من التصريح به على نفسك، فتأتي بالإشارات والمعاريض التي لا يفهمها إلا خاصة الخاصة؟

(عليك بكتب الأدب والبلاغة والشعر)

احرص على كتب الأدب والبلاغة والشعر، فإنّ الخطيب أحوج ما يكون إليها، قال ابن الجوزي رحمه الله: " التحقيق مع العوام صعب، ولا يكادون ينتفعون بمرّ الحق، إلا أنَّ الواعظَ مأمورٌ بألا يتعدى الصواب، ولا يتعرض لِمَا يُفْسدهم، بل يجذبهم إلى ما يصلح بألطف وجه، وهذا يحتاج إلى صناعة، فإنَّ مِن العوام من يعجبه حسن اللفظ، ومنهم من يعجبه الإشارة، ومنهم من ينقاد ببيت من الشعر، وأحوج الناس إلى البلاغة الواعظ، ليجمع مطالبهم". ا.هـ[١]

ومن فوائد القراءة في هذه الكتب: أنها تُثري العقل بمخزون كبير من الكلمات والعبارات والحكم، التي من خلالها يتطلق الخطيب بالحديث دون تعثّر، ودون توقف بسبب نسيان كلمة كان قد زوَّرها، فهو يمتلك العديد من الكلمات المترادفة، فإذا عزبت عنه كلمة ففي جعبتِه الكثير من مرادفاتِها، وإذا نسي حكمةً وجد في مخزونِه حكمًا كثيرةً مثلها وتقوم مقامها، وإذا نسي آية أو حديثًا انتقل إلى قصة أو موقف أو حكمةٍ تسد الفراغ الذي أحدثه هذا النسيان.

---

[١] – صيد الخاطر: ١٣٨

(الحذر من الإطالة في الخطبة)

كان النبي صلى الله عليه وسلم يُقصّر الخطبة، وكذلك فعل أصحابُه ومنْ جاء بعدهم.

قَالَ أَبُو وَائِلٍ رحمه الله: خَطَبَنَا عَمَّارٌ رضي الله عنه، فَأَوْجَزَ وَأَبْلَغَ، فَلَمَّا نَزَلَ قُلْنَا: يَا أَبَا الْيَقْظَانِ لَقَدْ أَبْلَغْتَ وَأَوْجَزْتَ، فَلَوْ كُنْتَ تَنَفَّسْتَ؟ فَقَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ طُولَ صَلَاةِ الرَّجُلِ، وَقِصَرَ خُطْبَتِهِ، مَئِنَّةٌ مِنْ فِقْهِهِ، فَأَطِيلُوا الصَّلَاةَ، وَاقْصُرُوا الْخُطْبَةَ، وَإِنَّ مِنَ الْبَيَانِ سِحْرًا».[1]

قولُه: (مئنة) أي علامة، (من فقهه) "أي مما يُعرف به فقه الرجل، وكلُّ شيء دل على شيء فهو مئنة له.

وإنما كان قصر الخطبة علامة على فقه الرجل؛ لأنَّ الفقيه هو المطلع على حقائق المعاني وجوامع الألفاظ، فيتمكَّن من التعبير بالعبارة الجزلة المفيدة، ولذلك كان من تمام هذا الحديث «فأطيلوا الصلاة واقصروا الخطبة، وإن من البيان لسحرا»، فشبه الكلام العامل في القلوب الجاذب للعقول بالسحر؛ لأجل ما اشتمل عليه من الجزالة وتناسق الدلالة، وإفادة المعاني الكثيرة، ووقوعه في مجازه من الترغيب والترهيب ونحو ذلك، ولا يقدر عليه إلا مَنْ فَقِهَ فِي الْمَعَانِي وَتَنَاسُقِ دَلَالَتِهَا؛ فإنه يتمكَّن من الإتيان بجوامع الكلم، وكان ذلك من خصائصه – صلى الله عليه وسلم – فإنه أوتي جوامع الكلم.

---

[1] – رواه مسلم (٨٦٩)

والمراد من طول الصلاة الطول الذي لا يدخل فاعله تحت النهي، وقد كان يصلي – صلى الله عليه وسلم – الجمعة بالجمعة والمنافقين، وذلك طول بالنسبة إلى خطبته وليس بالتطويل المنهي عنه".[١]

"فلا ينبغي للإنسان أن يطيل على الناس، كلَّما قصَّر كان أحسن لوجهين:

الوجه الأول: ألا يمَلَّ الناس.

الوجه الثاني: أن يستوعبوا ما قال؛ لأن الكلام إذا طال ضيَّع بعضُه بعضًا، فإذا كان قصيرًا مهضومًا مُسْتَوعبًا انتُفع به".[٢]

وقد قيل لاياس بن معاويةَ: ما فيك عيب إلا كثرة الكلام، قال: فتسمعون صوابا أم خطأ؟ قالوا: بل صوابا، قال: فالزيادة من الخير خير!

قال الجاحظ مُسْتدركًا عليه: وليس كما قال، للكلام غايةٌ، ولنشاط السامعين نهاية، وما فَضُل عن مقدار الاحتمال ودعا إلى الاستثقال والملال فذلك الفاضل هو الهذر، وهو الخطل وهو الإسهاب الذي سمعتُ الحكماء يعيبونَه. ا.هـ[٣]

وما أجمل قول القائل: " قليلٌ يُوعى، خيرٌ من كثيرٍ يُنْسى".

وقصر الخطبة فيه ثلاث فوائد نفيسة:

الأولى: اتباع السنة.

---

[١] – سبل السلام للصنعاني: ٤٠٤/١

[٢] – شرح رياض الصالحين، للشيخ محمد بن صالح العثيمين: ٧٩/٤

[٣] – البيان والتبيين: ٧٠

الثانية: سهولةُ تحضير الخطبة، وحصولُ الراحة النفسية عند تحضيرها، وأثناء إلْقائِها، وبعد الفراغ منها.

الثالثة: التخفيف على المستمعين، فيكاد يتفق الناس جميعهم على الارتياح للذي يقصر خطبته، والنفرة ممن يُطيلها.

ولقد رأيت أنَّ الوقت المناسب للخطيب وللمستمعين هو بين عشر دقائق إلى ربع ساعة، فإنّ الناس يكادون يتَّفقون على أنّ قصر الخطبة أحبّ إليهم وأخف عليهم من طولِها.

وممَّا يعين على قصر الخطبة:

١- عدم الاستطراد والاستغراق في التفاصيل؛ بهدف شدّ الانتباه وإثارة الحماس، فهذا يؤدي إلى إطالة الخطبة، واحتمال الوقوع في الخطأ، ونسيان الأشياء الضرورية في الخطبة.

فإذا انتهيت من طرح ما تريد فلا تكرر بهدف الإقناع ولفت الانتباه.

٢- عدم ذكر مرادفات الكلمات بلا حاجة.

مثال ذلك: قول الخطيب: (العمل أفضل من الكسل): يكفي، فإذا قال: أفضل وأنفع وأحسن، فهذا عيٌّ عند أهل البلاغة، وإطنابٌ بلا حاجة.

(ابتعد عن الغريب من الكلام)

تجنّب الوحشي والغريب من الكلام، فالناس لن يحتاجوا منك مثل هذا الكلام، ولن يُفيدهم في شيء، وقد يكون للنفس حظوظٌ في إيرادها والإكثار منها.

وقد حذّر الأدباءُ والبلغاءُ المعتبرون من الوحشي وغريب الكلام.

قال إبراهيم بن المهدي لعبد الله بن صاعد كاتبه: إياك وتتبع الوحشي من الكلام طمعاً في نيل البلاغة؛ فإن ذلك هو العي الأكبر، عليك بما سهل مع تجنبك ألفاظ السفل.[١]

وقال ابن رشيق: إذا كانت اللفظة خشنة مستغربة: لا يعلمها إلا العالم المبرز، والأعرابي القح؛ فتلك وحشية، وكذلك إن وقعت غير موقعها، وأتى بها مع ما ينافرها، ولا يلائم شكلها. ا.هـ[٢]

وصدق القائل:

إنْ كان في الْعِيِّ آفاتٌ مُقَدَرَةٌ ... ففي البلاغة آفاتٌ تُسَاوِيْها

فلا تظن "أن البلاغة إنما هي الإغراب في اللفظ، والتعمق في المعنى، فإن أصل الفصيح من الكلام ما أفصح عن المعنى، والبليغ ما بلغ المراد، ومن ذلك اشتقا؛ فأفصح عن معانيه، ولم يحوج السامع إلى تفسير له بعد ألا يكون كلاماً ساقطاً، ولا للفظ العامة مشبهاً، ولذلك قال بعضهم في وصف البلاغة: هي أن

---

[١] – العمدة لابن رُشيق ٢٠٢/١

[٢] – (العمدة ٤٤/١).

يتساوى فيها اللفظ والمعنى، فلا يكون اللفظ أسبق إلى القلب من المعنى، ولا المعنى أسبق إلى القلب من اللفظ".[١]

[١] – البرهان في وجوه البيان، لأبي الحسين إسحاق بن إبراهيم الكاتب: ١٦٣

(ابتعد عن تكلّف السجع)

نهى الشرعُ الحكيم عن تكلّف السجع، وكرهه الأدباءُ والبلغاءُ.

جاء في الصحيحين[١] أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: اقْتَتَلَتِ امْرَأَتَانِ مِنْ هُذَيْلٍ، فَرَمَتْ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى بِحَجَرٍ، فَقَتَلَتْهَا وَمَا فِي بَطْنِهَا، فَاخْتَصَمُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَضَى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ دِيَةَ جَنِينِهَا غُرَّةٌ عَبْدٌ أَوْ وَلِيدَةٌ، وَقَضَى بِدِيَةِ الْمَرْأَةِ عَلَى عَاقِلَتِهَا، وَوَرَّثَهَا وَلَدَهَا وَمَنْ مَعَهُمْ، فَقَالَ حَمَلُ بْنُ النَّابِغَةِ الْهُذَلِيُّ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ أَغْرَمُ مَنْ لَا شَرِبَ وَلَا أَكَلَ، وَلَا نَطَقَ وَلَا اسْتَهَلَّ[٢]، فَمِثْلُ ذَلِكَ يُطَلُّ[٣]، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّمَا هَذَا مِنْ إِخْوَانِ الْكُهَّانِ»، مِنْ أَجْلِ سَجْعِهِ الَّذِي سَجَعَ.

"قال العلماء: إنما ذم سجعه لوجهين:

أحدهما: أنه عارض به حكم الشرع ورام إبطاله.

والثاني: أنه تكلفه في مخاطبته.

وهذان الوجهان من السجع مذمومان، وأما السجع الذي كان النبي صلى الله عليه وسلم يقوله في بعض الأوقات وهو مشهور في الحديث فليس من هذا؛ لأنه لا يعارض به حكم الشرع، ولا يتكلفه، فلا نهي فيه، بل هو حسن".[٤]

---

[١] – البخاري (٥٧٥٩)، ومسلم (١٦٨١).

[٢] – أي ولا صاح عند الولادة ليعرف به أنه مات بعد أن كان حيا.

[٣] – أي يهدر ولا يضمن.

[٤] – شرح صحيح مسلم للنووي ١١/ ١٧٨

ومما لا شك فيه: "أنّ مِن أوصاف البلاغة السّجع في موضعه، وعند سماحة القول به، وأن يكون في بعض الكلام لا في جميعه، فأما أن يلزمه الإنسان في جميع قوله ورسائله وخطبه ومناقلاته فذلك جهل من فاعله، وعي من قائله".[١]

"إنّ السّجع في خطابة هذا العصر – عصر الخلفاء الراشدين – كان شيئًا عارضًا؛ إذ كان الرسول –صلى الله عليه وسلم– لا يستعمله في خطابته، وكان ينفرُ منه حين يلهج به أحد محدثيه، كراهية للتشبه بالكهان في سجعهم، وعلى ذلك صار الخلفاء الراشدون والصحابة من بعدهم"[٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: إِنَّمَا الْبَلَاغَةُ الْمَأْمُورُ بِهَا فِي مِثْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا} [سُورَةُ النِّسَاءِ: ٦٣] ، هِيَ عِلْمُ الْمَعَانِي وَالْبَيَانِ، فَيُذْكَرُ مِنَ الْمَعَانِي مَا هُوَ أَكْمَلُ مُنَاسَبَةً لِلْمَطْلُوبِ، وَيُذْكَرُ مِنَ الْأَلْفَاظِ مَا هُوَ أَكْمَلُ فِي بَيَانِ تِلْكَ الْمَعَانِي.

فَالْبَلَاغَةُ بُلُوغُ غَايَةِ الْمَطْلُوبِ، أَوْ غَايَةِ الْمُمْكِنِ، مِنَ الْمَعَانِي بِأَتَمِّ مَا يَكُونُ مِنَ الْبَيَانِ، فَيَجْمَعُ صَاحِبُهَا بَيْنَ تَكْمِيلِ الْمَعَانِي الْمَقْصُودَةِ، وَبَيْنَ تَبْيِينِهَا بِأَحْسَنِ وَجْهٍ.

وَأَمَّا تَكَلُّفُ الْأَسْجَاعِ وَالْأَوْزَانِ، وَالْجِنَاسِ وَالتَّطْبِيقِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا تَكَلَّفَهُ مُتَأَخِّرُو الشُّعَرَاءِ وَالْخُطَبَاءِ، وَالْمُتَرَسِّلِينَ وَالْوُعَّاظِ، فَهَذَا لَمْ يَكُنْ مِنْ دَأْبِ خُطَبَاءِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ، وَالْفُصَحَاءِ مِنْهُمْ، وَلَا كَانَ ذَلِكَ مِمَّا يَهْتَمُّ بِهِ الْعَرَبُ.

---

[١] – البرهان في وجوه البيان، لأبي الحسين إسحاق بن إبراهيم الكاتب: ١٦٥

[٢] – الخطابة، إعداد: جامعة المدينة العالمية: ١٥٢

وَغَالِبُ مَنْ يَعْتَمِدُ ذَلِكَ يُزَخْرِفُ اللَّفْظَ بِغَيْرِ فَائِدَةٍ مَطْلُوبَةٍ مِنَ الْمَعَانِي، كَالْمُجَاهِدِ الَّذِي يُزَخْرِفُ السِّلَاحَ وَهُوَ جَبَانٌ. ا.هـ[١]

وقال رحمه الله: وَلَيْسَتِ الْفَصَاحَةُ التَّشَدُّقَ فِي الْكَلَامِ، وَالتَّقْعِيرَ فِي الْكَلَامِ، وَلَا سَجْعَ الْكَلَامِ، وَلَا كَانَ فِي خُطْبَةِ عَلِيٍّ وَلَا سَائِرِ خُطَبَاءِ الْعَرَبِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَغَيْرِهِمْ تَكَلُّفُ الْأَسْجَاعِ، وَلَا تَكَلُّفُ التَّحْسِينِ الَّذِي يَعُودُ إِلَى مُجَرَّدِ اللَّفْظِ، الَّذِي يُسَمَّى عِلْمَ الْبَدِيعِ، كَمَا يَفْعَلُهُ الْمُتَأَخِّرُونَ مِنْ أَصْحَابِ الْخُطَبِ وَالرَّسَائِلِ وَالشِّعْرِ. ا.هـ[٢]

ومن جميل ما قيل في قوله تعالى: {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}: قول ابن عطية رحمه الله: "«الضّر» بضم الضاد سوء الحال في الجسم وغيره، «والضّر» بفتح الضاد ضد النفع، وناب الضر في هذه الآية مناب الشر وإن كان الشر أعم منه فقابل الخير، وهذا من الفصاحة، عدول عن قانون التكلف والصنعة؛ فإن باب التكلف وترصيع الكلام أن يكون الشيء مقترنا بالذي يختص به بنوع من أنواع الاختصاص موافقة أو مضادة". ا.هـ[٣]

---

[١] – منهاج السنة النبوية: ٨/٥٤-٥٥

[٢] – منهاج السنة النبوية: ٨/٥٣

[٣] – التحرير الوجيز: ٢/ ٢٧٤

(أسباب التخلّص من الخوف المفرطِ من الخطابة)

الخوف –لاسيّما في البداية– أمرٌ طبيعيٌّ جدًّا، بل هو إيجابيّ يُساعد على العناية بالخطبة والإعداد لها.

لكنّ اسْتمرار الخوف في كلّ خطبةٍ ولمدّةٍ طويلةٍ أمرٌ سلبيٌّ، ينبغي اتخاذ الأسباب في التخلّص منه، ومنها:

أولاً: الحرص على مشاهدة الناس، والحديث أحيانًا ارتجالاً، ولو رأيت صعوبةً في البداية، وأخطاءً وتردّدًا، فاستمرارك على عدم الخروج عمّا في الورقة، وعدم النظر للجمهور بجرأةٍ يُفقد السامعين الحماس لكلامك، ويجعلك تستمر على الخوف والوجل من المنبر.

وقد صرّح لي بعض الخطباء الذين لهم سنوات في الخطابة، ولكنهم لا يخرجون عمّا في الورقة ولا ينظرون للجمهور، بأنهم يجدون الخوف والقلق عند كلّ خطبة، بل ويقول: إنني في كلّ خطبةٍ كأنني لِأَول مرّةٍ أخطب، من الهم والوجل!

ثانيًا: شرب بعض الأشربة المهدّئة قبل الخطبة، كالنعناع ونحوه، فله أثرٌ في تسكين القلق والخوف.

ثالثًا: توطين النفس على سماع النقد، والفرح بذلك؛ ليكون سُلّمًا للتقدّم والإبداع، وعدم الخوف من الخطأ.

فالذي يستمر معه الخوف والقلق قد يكون من أعظم أسبابه خشية وقوعه في الخطأ، ونفرته من النقد.

رابعًا: الحضور مُبكرًا، فلا شك أنّ الخطيب الذي يأتي مُسرعًا ليتدارك الوقت سيثور نفسُه، ويضطرب فُؤاده، وينتابُه قلقٌ وحرجٌ يدوم حتى أثناء الخطبة.

(تفاوتُ زمن تحضير الخطبة)

زمن الإعداد للخطبة يختلف حسب ثقافة وعلم الخطيب، وعلى حسب المادة التي سيلقيها، فلا تخلو المادةُ من نوعين:

الأول: أنْ تكون علميّةً، كالمسائل الفقهية أو العقدية وتأصيلها، فهذه يجب أنْ تُعطى زمنًا يليق بمقامها، ولا ينبغي الاستهانة بها، وتحضيرها قبل الخطبة بساعات قليلة عند الحاجة.

الثاني: وعظيةً أو اجتماعية ونحوها، فهذه لا بأس بتحضيرها ولو يوم الجمعة.

ونصيحتي للمستجد في الخطابة – ممن لم يملك الخبرةَ والعلوم الكافية –: أنْ يستفيد في البداية مِن خطب مَن سبقه، ويكون الذي يستفيد منه تتصف خطبه بثلاث صفات:

الأولى: أنْ تكون قصيرةً، حتى لا يشق عليه إلقاؤها.

الثانية: أنْ تكون سليمةً نحويًّا وعلميًّا.

الثالثة: أنْ تكون بعيدة عن التكلف لفظًا ومضمونًا.

ولا بأس مع مرور الأيام أنْ يُعَدِّل أو يزيد ما يراه مُناسبًا، ثم يُحاول بعد ذلك أنْ يكتب الخطبة بنفسه، مستفيدًا مِمَّن سبقه.

(البعدُ عن الأوامر المباشرة للمستمعين)

تجنب – حفظك الله وسدّدك – الألفاظ التي فيها أوامر للسامعين دون المتحدّث، مثل: افعلوا أو لا تفعلوا، واستعمل بدلها: لنفعل ، ولنترك ، ونحو ذلك، فهذه الصيغة تُشعر السامعين بتواضعك، وبحبّك الخير لهم كما تُحبّه لنفسِك، وأنك لست فوقهم لا دينًا ولا خُلُقًا.

(متى يحسن ويقبح التقليد في الخطابة؟)

لا تقلد خطيبًا مُعيّنًا في أُسلوبِه أو مادّته، فقد يُناسبه ما لا يُناسبك، والتقليد يُفسد إبداعك ومواهبك، فاخطب حسب ما أعطاك ربّك من قدرات ومواهب وعلم.

أما بالنسبة للمستجد على الخطابة، فلا بأس بأنْ يستفيد من غيره أسلوبًا ومادّةً، ولكن ينبغي ألا يكون نسخةً منه، بل يجعله عونًا له على الرقي بنفسه.

(لا تحزن لقلّة الحضور عندك، ولا تفرح بكثرتهم)

اعلم – نفع الله بك – أنّ النفس ترغب في كثرة المستمعين والحاضرين، وخاصة من أقاربك وأصدقائك، وربما سألت عن حضورهم، أو عاتبت –ولو بقلبك– على عدم حضور أحدهم، فجاهد نفسك على التخلص من هذا الداء، فعدم حضوره عندك لا يعني بأنك ضعيف، ولكن لأنه يجد الراحة والفائدة عند الخطيب الآخر، أو لقربه من بيته، أو لأسبابٍ أخرى.

والخطيب الصادق يفرح إذا سمع أن الناس يحضرون عند غيره، ويدعو الله له بالسداد والنفع، ويُثني عليه إذا علم عنه خيرًا.

وإذا رأيت قلة الحضور عندك وعزوف الناس عنك: فحاسب نفسك، فقد يكون الخلل منك، إما من ضعفِ أسلوبك، أو من ضعفِ المادة التي تطرحها، أو بسبب إطالتك للخطبة، أو لغير ذلك من الأسباب.

واستنصح إخوانًا صادقين ناصحين، واطلب منهم الحضور عندك، أو سماع خطبتك، واطلب منهم بصدق أن يُعطوك ملحوظاتهم وآراءَهم، وسوف تخرج بنتائج نافعة بإذن الله تعالى.

(أهميّةُ الإعداد الجيد)

إذا كنت ممن يرتجل الخطبة فعليك بالإعداد الجيد لها، ولا تتهاون أبدا في ذلك، وإن بدا لك أنَّ الموضوع يسيرٌ وسهلٌ وقد طرحته سابقًا.

وبعض الخطباء لا يُعدّ للخطبة عدتها، ولا يعي أهميّتها، ويحشو فيها من الكلام ما تنبو عن الآذان، ويجيء بكلام أشبه بالهذيان، ويصدق في هؤلاء قول الشاعر:

ويرتجل الكلام وليس فيه ... سوى الهذيان مِن حشد الخطيب

فينبغي للخطيب على وجه الخصوص أن يستعدّ للخطبة أتم الاستعداد، "وأنْ يتقي خيانة البديهة في أوقات الارتجال، ولا يغره انقياد القول له في بعض الأحوال، فيركب ذلك في سائر الأوقات، وعلى جميع الحالات".[١]

وإذا كنت ممن يقرأ من ورقة فاحذر أنْ تُداوم على أخذ خطب غيرِك، فقد يُرخَّصُ لك في البداية، لكن لا عذر لك بعد طول الخبرة والتجربة.

والإعداد الجيد من ألذّ الأمور عند الخطباء، بل إنهم يتشوقون ليوم الجمعة لطرح ما أعدُّوه وتعبوا عليه.

وأما المداومةُ على عدم الإعداد، والاكتفاء بخطب الآخرين، ففيه سلبيّاتٌ كثيرةٌ منها:

أولاً: أنه يُسبب ضعف الهمة، وخور العزيمة، ومهانة النفس، حيث تكتفي بتقليد الآخرين.

---

[١] – البرهان في وجوه البيان، لأبي الحسين إسحاق بن إبراهيم الكاتب: ١٦٨

ثانيًا: أنّه تُفقدك الحماس والنشاط واللذة، فتُصبح كأنها همٌّ تُريد إزاحته عنك، ويُؤثر هذا على أُسلوبك وقبول الناس لك.

ثالثًا: أنّ الكثير من الناس يُشعرون بأنّ الخطيب لم يُعدّ الخطبة بنفسِه، وإنما نقلها عن غيرِه، وذلك لاختلاف أسلوب ومادّة الخطبة عن أسلوبه ومُسْتواه، فلا تكون للخطبة قبولٌ عندهم.

رابعًا: أنك لن تنتفع منها، وإن انتفعت فهو نفعٌ يسير، فالعمل الذي لا يجتهد في صاحبه بحثًا وإعدادًا سرعان ما يُنسى ويتلاشى.

فلن تتقدّم، ولن يزداد طموحُك، وتعظم همَّتُك، ويُنتفع من علمك – إلا ما شاء الله–.

ولذلك انظر إلى الخطبة التي أعددتها إعدادًا جيّدًا، تجد أنك لم تنسها، ولو رجعت إليها بعد عشر سنوات، فإنك تعلمُ ما فيها، وكأنك ألقيتها قريبًا.

أما الخطب التي نقلتَها عن غيرك فسرعان ما تنساها، وجرب ذلك، ارْجع إلى الخطبِ التي مضى عليها أربع أو خمس سنوات، ستجد نفسك نسيتها أو تكاد تستذكر جزءًا يسيرًا مما جاء فيها.

ولن تنتفع بها أيضًا في جمع مادتها لتكون كتابًا يُنتفع به.

وكم من كتابٍ انتفع الناس منه كان سببُه خطبةً ألقاها صاحبُها، فكثيرٌ من الكتب والمؤلَّفات إنما هي خطبةٌ أعدّها إعدادًا جيّدًا فلاقت قبولاً واسْتحسانًا، فجعلها مُؤلّفًا انتفع منه الكثير من الناس.

واجتهد في إعداد الخطبة – إذا كنت تكتبها – وكأنك ستخرجها في كتاب، فخرِّج الأحاديث وبيّن درجة صحّتها بالاستعانة بكلام بعض المحدثين، ووثق المراجع والمصادر التي رجعت إليها، واهتم بها نحويًّا وإملائيًّا ولغويًّا.

(العنايةُ بعلامات الترقيم)

اهتمّ – إذا كنت تقرأ الخطبة – بعلامات الوقف والترقيم من الفواصل ونحوها، واجعل لك علاماتٍ خاصَّةً تقف عندها مُراعاةً لِنَفَسِك، حتى لا تُحرَج بكثرة الوقوف عند أماكن غيرِ مُناسبة.

مثال ذلك: عالي الهمةِ يُرى منطلقاً بثقةٍ وقوةٍ وإقْدام نحو غايتِه التي حدَّدَها على بصيرةٍ وعِلْم.

هذه الجملة قد تكون طويلةً على بعض الخطباء، فيصعب عليه نطقها كلها بنفَسٍ واحد، فالأولى له أنْ يضع فاصلةً – ولو بخط يده– على مكان يقف فيه مُراعاةً لِنَفَسِه.

فيفعل هكذا: عالي الهمةِ يُرى منطلقاً بثقةٍ وقوةٍ وإقْدام، نحو غايتِه التي حدَّدَها على بصيرةٍ وعِلْم.

(أهميّةُ تنويع المواضيع)

نوّع في طرح الموضوعات، ولا تقتصر على نمطٍ واحد، كأنْ تكون خطبك عن أحوال القلوب، أو عن أمور الأمة العامة، أو نحو ذلك.

بل كن كثيرَ التنويع؛ لتبعث في نفوس الناس الشوق إلى خطبك.

واعلم أنّ القصص المستقاة من الكتاب وصحيح السنة لها أعظم الأثر على المستمعين، وفيها أعظم الدروس والعبر، والمواعظ والدرر، فكن حريصًا عليها وعلى طرحها بأسلوب مشوّق، واستنبط منها الفوائد والعبر.

وأكثر من الاستشهادات على كلامك؛ كالمواقف والقصص والأمثلةِ الواقعيّة ونحوها، وإذا لم تستعملها فسيكون أسلوبك مملًّا وثقيلاً.

واحرص أشدّ الحرص على الأسلوب الأمثل في عرض القصص والمواقف، وأن تتفاعل معها بوجدانك، وأن يظهر ذلك على قسمات وجهك، ونبرات صوتك.

(أهميّةُ اكتساب مهارات وفنون الإلْقاء والتأثير)

أولى الناس باكتساب مهارات وفنون الإلْقاء الخطيبُ، حيث إنّ الخطيب يحتاج إلى إقناع الناس، وشدّ انتباههم، كي يَقْبلوا ما يقوله لهم.

والخطيب صاحب الأسلوب القوي، والإلْقاء البديع ينتفع به الناس –غالبًا– أكثر ممن لا يتميّز بذلك، ولو كان أكثر علمًا، وأعلى منصبًا.

فينبغي للخطيب أنْ يستمع إلى دروسٍ في فنّ الإلْقاء، وإن حضرها فهو أفضل، أو يقرأ الكتب الْمَعنيّة بذلك.

"ومما يزيد الخطبة حُسْنًا على حسنها، أن يُجيد الخطيب إلقاءها، ونعني بإجادة الإلقاء: أن لا يستمرَّ في نُطقِه بالجُمَل على حالٍ واحدة، بل تكون الجمل متفاوتةً في مظاهرها، من نحو رفع الصوت وخَفْضِه، وتفخيمه وترقيقه، والوقوف عند جملة، أو وصله بأخرى، والضَّغْطِ على الكلمة أو التلفُّظ بها في هَوَادَةٍ، وأنتم تعلمون أنَّ من هَيْئَات النطق بالجملة ما يُشعِرُ بابتهاجِ الخطيب أو حزنه، ومنها ما يُلائِم الجمل التي يلقيها وهو واثقٌ بصِحَّتها، ومنها ما يُلائِم الجمل المرسلةَ لتهكُّمٍ أو مزاحٍ، ومرجع هذا كلِّه إلى ذكاء الخطيب وسلامةِ ذَوْقِه.

وجودةُ إلقاء الخطبة هي التي تجعل لسماعها فضلاً على قراءتها في صحيفة، وكم من خطبةٍ يُحسِنُ الرجلُ إلقاءَها فيجدُ الناسُ في سماعها من الارتياح وهِزَّةِ الطَّرَبِ فوق ما يجدونه عندما يقرؤونها في صحيفة، أو يستمعون إلى من يسرُدها عليهم سَرْدًا متشابهًا".[١]

---

[١] – الخطابة عند العرب، لمحمد الخضر حسين: ١٩١

وإذا كان كذلك: كان حقًّا على كل خطيب غيور على دينه أن يجتهد غاية الاجتهاد في البحث عن أفضل طرق التأثير، وعن أسهل طرق توصيل المعلومات والمواعظ لهم.

ولا ينبغي أن يترك بابًا من أبواب التأثير وفنون الإلقاء إلا طرقه، ولا ينبغي أن يظل على طريقةٍ واحدة لا يغيرها مدى حياته، بل ينبغي أنْ يسأل من يحضرون عنده عن عيوبه ومدى تأثيره عليهم، ويحضر الدورات التي تنمي فيه موهبة الخطابة والإلقاء والتأثير.

فينبغي العناية بالأسلوب المؤثر في نفوس الناس، والتأثير فيهم لا يكون عبر اكتساب خبرات علمية أو عملية، وهي نافعة بلا شك، ولكن التأثير لا يتوقف على ذلك، بل هو هبةٌ من الله تعالى يهبه لمن صدق معه، وأخلص في طلب نفع الناس وتبليغِ رسالاتِه، ونصحِ عبادِه.

ومن صدق مع الله ووهب نفسه ووقته له، وهب الله له من لطفِه وفضلِه ما لم يكن في حسبانه، ولم يَدُرْ في خَلَده ، ومن أعطى الله ما يُحبّ، أعطاه الله ما يُحبّ، ومن سخّر نفسه لله، سخّر الله له خلقَه، وسخّر له أسباب السعادة والرفعةِ والتمكين.

فما بينك وبين مواهب الرب الجليل إلا صدق العزيمة، وقوة الإرادة في ذات الله، وترك ما تحب أنت لِمَا يحب هو جل وعلا، والسعيُ الحثيث لرفعة دينه وشريعته ولو أدَّى ذلك إلى نزول مقامك عند أهل الدنيا والأهواء والمناصب.

(العناية بأداتين من أدوات التأثير: الصوت والنظر)

الخطيب الناجح بأمس الحاجة إلى استعمالِ هاتين الأداتين:

١- الصوت، وهو أداةُ التأثير الأقوى، ويكمل تأثيره بمراعاة ما يلي:

أ- أن يكون مستوى الصوتِ متوسّطًا في رفعِه وخفضِه، وسرعتِه وبطئِه، فلا يكون منخفضًا أو بطيئًا فيُصيب المستمعين بالملل والفتور، ولا يكون مرتفعًا أو سريعًا إلى درجة إزعاجهم أو عدم قدرتهم على التركيز والاستيعاب.

ب- ألا يكون على وتيرة واحدة، فبعض الخطباء يكون صوته واحدًا في جميع الخطبة، فإن كان ضعيفًا أصابهم بالملل، وإن كان قويّا مرتفعًا ضايقهم.

والحديث على وتيرة واحدة: يفقد المستمعين التفاعل مع كلام الخطيب؛ حيث لن يميزوا بين المواضع المهمة وغيرها، ومما لا شكّ فيه أنّ الكلام المهم والمؤثر يحتاج إلى رفعٍ ملحوظٍ للصوت مع تسارعه، أو خفضه مع بطئه.

ج- صياغة صوت الجُمَل حسب موقعها، فإن كانت استفهامًا فسقها سياق المستفهم، وإن كانت تعجبًا فسقها سياق المتعجب، وهكذا.

د- افتح فمك أكثر من فتحه في حديثك المعتاد، فإنّ هذا يفيد في وضوح مخارج الحروف وعدم تداخلِها، والقدرة على التحكم بالصوت، ولكن دون مبالغة، فالمبالغة في فتح الفم يؤدي إلى الحماس المفرط، وإلى منظر غير لائق للخطيب.

هـ- التوقف يسيرًا في الحالات التي يحسن فيها التوقف، "فإذا مرّ الخطيب بفكرةٍ مهمّة يرغب في ترسيخها في أذهان مستمعيه: توجه إليهم، وأحدق بعيونهم مباشرة للحظة، دون أن يقول شيئاً.

وهذا الصمت المفاجئ له أثر كبير عليهم، بحيث يجذب انتباههم، ويجعل كل واحد منهم منتبهًا ومتحفزًا لما سيعقب ذلك الصمت.

لكن يجب أن يكون التوقف بشكل طبيعي، ومن دون تكلف".[١]

مثال ذلك: (بَعَثَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقطعةٍ من ذهَب، فَقَسَمَهَا بَيْنَ بعض أصحابِه.

فَأَقْبَلَ رَجُلٌ فَقَال: اتَّقِ اللَّهَ يَا رَسُولَ اللَّهِ!(...)

يا لها من جرأةٍ وقلةِ أدبٍ في حقّ الصادق الأمين صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ!!

ولذلك قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُتعجِّبًا من هذه الجُرأةِ والوقاحة:(...) مَنْ يُطِعِ اللَّهَ إِذَا عَصَيْتُ، أَيَأْمَنُنِي اللَّهُ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَلَا تَأْمَنُونِي؟)

ما بين القوسين يشير إلى وقفة يسيرة؛ لأنَّ المقام يقتضي ذلك لشدّ انتباه المستمعين، وتشويقهم لِمَا سيُقال بعدها.

والذي باللون الأحمر كان أسلوبَ تعجب، فالمقام يقتضي أنْ يصوغ الخطيب هذه العبارة صياغة متعجب.

والذي باللون الأزرق كان أسلوبَ استفهام إنكار، فالمقام يقتضي أنْ يصوغ الخطيب هذه العبارة صياغة مستفهمٍ منكر.

---

[١] – فن الإعداد والإلقاء، للرائد: سامي الحمود: ١٤٣، مع التصرف.

٢- النظر، وذلك بتوزيع النظر على عموم المستمعين، وبأنْ تتفاعل بعينيك مع الحديث الذي تتكلم به، ويكون ذلك:

أ- بالالتفات اليسير يمينًا وشمالاً، دون المبالغة في الالتفات سرعةً أو وكثرةً، فإنه لا يستحسن من الخطيب على وجه الخصوص؛ لأنه يدل على تغليب الخطيب لعواطفه وتسلّطها عليه، ويُؤدّي ذلك إلى عدم الدقة في التركيز.

ب- بفتح العين أو الضغط عليها يسيرًا، وحركات العين لها أعظم الأثر على الحاضرين، ويستلهمون منها معانٍ قد لا يُفصح عنها اللسان، وصدق القائل.

العين تبدي الذي في نفس صاحبها ... من المحبة أو بغضٍ إذا كانا

والعين تنطق والأفواه صامتةٌ ... حتى تَرى مِن ضمير القلب تِبْيَانا

والصوت والنظر هما ركنانٍ أساسيّان من أركان تأثير الخطيب على المستمعين، وبدونهما يفقد القدرة على إيصال ما يريده لهم، ويفقد القدرة على إقناعهم، وشدّ انتباههم، وحماسهم ونشاطهم.

وبالإمكان لكلّ خطيب أنْ يستعملهما دون حرج ولا تكلفّ، بخلاف بعض الأدوات التي قد لا تناسب خطيب الجمعة، ومنها:

١- تحريك اليدين.

٢- تعابير الوجه.

٣- حركة الجسد بالمشي ونحوه إذا كان المتحدثُ واقفًا على مسرحٍ ونحوِه.

وغيرها من الأدوات.

والذي يخطب من ورقة لا يكاد يُجيد مهارة الصوت والنظر، سوى مهارة التحكم بمستوى الصوتِ.

وهذا من أعظم مساوئ الخطابة بورقة.

وإني أجزم لو أنَّ مَن يخطب بورقة ذاق لذةَ الخطابة ارتجالا، وحلاوة استعمال هذه المهارات، ولذةَ حماس وتأثُّر المستمعين، ولذةَ الطَّلاقة في الكلام والقدرةَ على الاستحضار: لندم على سنواتٍ لم يخطب فيها ارتجالا، ومَن جرّب مثل تجربتي: عرف مثل معرفتي.

(لا تلتزم صيغةً معيّنة لم تثبت بالسنة الصحيحة)

لا ينبغي الالْتزام بصيغةٍ معيّنة إلا ما ثبت بالسنة الصحيحة، حتى لا يُظنّ بأنها سنة، ومع ذلك فالسنة ترك السنة أحيانًا؛ لئلا يعتقد الناس وجوبها، فكيف بالْتزام ما لم يثبت شرعًا!.

(العنايةُ بمخارج الحروف وعدمِ تداخلِها)

احرص على أن تلفظ بالحروف مُتَمَكِّنَةً من مخارجها، فإنّ لذلك تأثيرًا بالغًا في الفصاحة والبيان وقوة الكلام.

"ومما يُقِيمُ الخطبة ويكسوها رَوْنَقًا، أن يلفِظ الخطيبُ بالحروف مُتَمَكِّنَةً من مخارجها، وقد كان العرب يحتفلون بهذا الوجه من الحُسْن، فيأسفُ الخطيب على سقوط شيءٍ من أسنانه، وإنما يأسف لأنه يَفُوتُه النطقُ ببعض الحروف على وجهها الصحيح.

سقطت ثنايا عبد الملك بن مروان فَشَدَّها بالذهب وقال: "لولا المنابرُ ما باليتُ متى سَقَطَتْ.

ومما يؤخذ به الخطيب أن ينطقَ بالألفاظ في عَجَلٍ حتى يَصِلَ الحرفَ أو اللفظَ بأخيه قبل أن يستقرَّ الحرفُ أو اللفظُ الأول في موضعِه، والأدب الجميل أن يمكِّن الحروف تمكينًا، ويفصِّلَ الكلمات تفصيلاً".[١]

وكذلك كان كلامُ أفصحِ الخليقة صلوات الله عليه، قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَكُنْ يَسْرُدُ الحَدِيثَ كَسَرْدِكُمْ.[٢]

وأهل التجويد يُعْنَون بمخارج الحروف، فلذا ينبغي للخطيب الحصيف أنْ يقرأ القرآن على قارئ مجوّد متقن، ويطبق ما تعلّمه في تلاوة القرآن في خُطبِه.

---

[١] – الخطابة عند العرب، لمحمد الخضر حسين: ١٨٩

[٢] – رواه البخاري (٣٥٦٨)، ومسلم (٢٤٩٣).

فإذا نطقت القاف فانطقها مفخمة، وإذا نطقت بحرف مشدّد فانطقه كذلك، ومدّ المدود الطبيعيّة مقدار حركتين، وهكذا افعل في بقية الحروف.

"فالذي يعتاد على قراءة القرآن مُجوّدًا، بحيث يُعطي الحروف حقوقها وصفاتِها يكون كلامُه أعظم وقعًا في النفوس، وأجمل وأبلغ وأوضح.

وبالأخص: المدود الطبيعية، فإنَّ لها تأثيرًا ظاهرًا في فصاحة المتكلم والخطيب، حيث تَخرج كلماته واضحة فصحية، وهي مهمة لمن يُعاني من السرعة في الكلام، حيث تفصل بين الحروف مما يُسبب عدم اختفاء بعض الحروف بسبب العجلة والسرعة، وأعرف من يُعاني من ذلك أشد العناء، حتى يُرى ذلك عليه أثناء حديثه للناس في الخطابة والكلمات وغيرها، فاعتنى بحروف المدود وأتقنها فزال عنه ذلك تمامًا والحمد لله".[١]

[١] – الْمَسَائِلُ الْمُهِمَّةُ فِي التَّجْوِيدِ والْأَحْرُفِ السَّبْعةِ للمؤلف: ١٧٢-١٧٣

(مقصودُ الخطبة، وأهمّ المواضيع التي يجب على الخطيب طرقها)

قال العلامة ابن القيم رحمه الله: ومن تأمل خطب النبي صلى الله عليه وسلم وخطب أصحابه، وجدها كفيلة ببيان الهدى والتوحيد، وذكر صفات الرب جل جلاله، وأصول الإيمان الكلية، والدعوة إلى الله، وذكر آلائه تعالى التي تحببه إلى خلقه، وأيامه التي تخوفهم من بأسه، والأمر بذكره وشكره الذي يحببهم إليه، فيذكرون من عظمة الله وصفاته وأسمائه ما يحببه إلى خلقه، ويأمرون من طاعته وشكره، وذكره ما يحببهم إليه، فينصرف السامعون وقد أحبوه وأحبهم، ثم طال العهد وخفي نور النبوة، وصارت الشرائع والأوامر رسوما تقام من غير مراعاة حقائقها ومقاصدها، فأعطوها صورها وزينوها بما زينوها به، فجعلوا الرسوم والأوضاع سننا لا ينبغي الإخلال بها، وأخلوا بالمقاصد التي لا ينبغي الإخلال بها، فرصعوا الخطب بالتسجيع والفِقَر، وعلم البديع، فنقص بل عُدم حظُّ القلوب منها، وفات المقصود بها. ا.هـ[1]

وقال رحمه الله في حديثه عن مقصود الخطبة: يقصد بها الثناء على الله وتمجيده، والشهادة له بالوحدانية ولرسوله صلى الله عليه وسلم بالرسالة، وتذكير العباد بأيامه، وتحذيرهم من بأسه ونقمته، ووصيتهم بما يقربهم إليه وإلى جنانه، ونهيهم عما يقربهم من سخطه وناره، فهذا هو مقصود الخطبة والاجتماع لها. ا.هـ[2]

---

[1] – زاد المعاد في هدي خير العباد: ١/ ٤٠٩-٤١٠

[2] – زاد المعاد في هدي خير العباد: ١/ ٣٨٦

وقال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله: "وبعض الخطباء أو كثير منهم يجعل الخطبة كأنها موضوع إنشاء مدرسي ، يرتجل فيه ما حضره من الكلام بمناسبة وبدون مناسبة ، ويطيل الخطبة تطويلا مملا ، حتى إن بعضهم يهمل شروط الخطبة أو بعضها ، ولا يتقيد بمواصفاتها الشرعية ، فهبطوا بالخطب إلى هذا المستوى الذي لم تعد معه مؤدية للغرض المطلوب من التأثير والتأثر والإفادة .

وبعض الخطباء يقحم في الخطبة مواضيع لا تتناسب مع موضوعها ، وليس من الحكمة ذكرها في هذا المقام ، وقد لا يفهمها غالب الحضور ، لأنها أرفع من مستواهم ، فيدخلون فيها المواضيع الصحفية والأوضاع السياسية وسرد المجريات التي لا يستفيد منها الحاضرون .

فيا أيها الخطباء، عُودوا بالخطبة إلى الهدي النبوي ، لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ، ركزوا مواضيعها على نصوص من القرآن والسنة التي تتناسب مع المقام ، ضمِّنوها الوصية بتقوى الله والموعظة الحسنة ، عالجوا بها أمراض مجتمعاتكم بأسلوب واضح مختصر ، أكثروا فيها من قراءة القرآن العظيم الذي به حياة القلوب ونور البصائر". ا.هـ[1]

[1] – الملخص الفقهي: ١٠٣/١

(الحرص على رباطةِ الجأش أثناء الخطبة)

لابد أن تكون هادئًا أثناء الخطبة، ولا يأخذك الحماس فتخرج عن الموضوع، أو تتكلم بكلام قد تندم عليه بعد ذلك، وإذا اشتد حماس الخطيب فإنه سيفقد في الغالب تركيزه والتحكم بكلامه، وربما علا صوته إلى حدّ إيذاء كثير من المستمعين.

فلابدّ أن يكون "الخطيب رابط الجأش[١]، أي ساكن النفس جداً، لا يعتريه الحماس الشديد، ولا يُسيطر عليه الخوف المفرط، وهما سبب الإرتاج والزلل.

وعلامة سكون نفس الخطيب ورباطة جأشه: هدوؤُه في كلامه، وتمهّله في منطقه".[٢]

---

[١] – الجَأْش: القلب، والنَّفْس، والجَنَان. يقال: فُلَانٌ رابِطُ الجَأْش: أَيْ ثَابِتُ القَلْب لَا يَرْتاع وَلَا ينْزعج للعَظائم والشَّدائد. النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير: ٢٣٢/١، مادة جأَش.

[٢] – كتاب الصناعتين، لأبي هلال العسكري: ٢١

(القلق والتوتر في بداية ارتجال الخُطَب أمرٌ طبيعي)

ستجد في أوائل ارتجالك للخُطَب قلقا وخوفا، وهذا أمر طبيعي جدًّا، ومما لا ريب فيه أنك مع كثرة تعلّقك بالله وتوكلك عليه ودعائك الصادق، وطول الممارسة: سيزول الخوف تماما، إلى أن تصل إلى مرحلة الاستمتاع في الخطبة، وترقُّبِ يوم الجمعة لتذوق لذة الخطابة، ولا أقول هذا إلا عن تجربة.

"فتحمل ضيق الجدّ في البدايات، لتحصل على فضاءِ النعيم والمكانة والسعادة في النهايات.

وقل في نفسك: ما بعد الضيق إلا الفرج، وما بعد التعب إلا الراحة، وإنما هو صبر ساعة، فاصبر وصابر، لتعلو المنابر، وتصدحَ بالدعوةِ بين كلّ واردٍ وصادر، وصدق الله ومن أصدق من الله قيلاً: {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ}.

ولأجل ذلك ذُكر الصبرُ في القرآن في نحو تسعين موضعا أمرًا أو ثناء على أهلِه، أو جزاءً لهم.

ولِكي نعلم أهمّية الصبر وضرورته لصلاح أمر الدين والدُّنيا: تأمل كيف تكررت كلمة الصبر في قصة موسى عليه السلام مع قومِه:

قال قوم موسى لفرعون حين هدّدهم بالقتل: {وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ}.

ثم قال موسى لِقَوْمِهِ مُثبّتًا لهم: {اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}.

ثم قال تعالى مادحًا لهم ومُبيّنًا سبب علوّهم وتمكينهم في الأرض: { وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا}.

ففي هذا أوضح دليل على أنّ نجاح الإنسان وفلاحه وبلوغه أعلى المراتب: موقوفٌ على صبره على الأمر النافعِ الذي يطلبُه.

وقد جاءِ الوعد الصادق أنَّ النصرَ مع الصبر، وثبت بتجارب الأبطال أنّ الظّفر بالنّصر صبرُ ساعة.

وكذلك الرسوخُ في العلم صبرُ ساعة.

والانتصار على النفس والشيطان صبر ساعة.

والثباتُ عند الصدمة الأولى صبر ساعة.

وكسب الصفات الحسنة من الحلم والكرم والإيثارِ صبر ساعة.

والقدرةُ على ارتجال الخطب ومواجهة الجماهير الغفيرة برباطة جأش وإقدام صبر ساعة.

وصدق القائل:

إنّي رأيتُ وفي الأيامِ تجربةٌ ... للصَّبرِ عاقبةً محمودةَ الأثرِ
وقلَّ منْ جدَّ في أمرٍ يحاولهُ ... واستصحبَ الصَّبرَ إلاَّ فازَ بالظَّفرِ"[١]

[١] - عِبَاراتٌ تأثَّرْتُ بِهِا وَغَيَّرَتْ فِي حَيَاتِي للمؤلف: ٦١، ٢١٨-٢١٩

(الخاتمة)

كتبت هذه الخواطر والتجارب والنصائح راجيًا من الله تعالى أن تكون عونًا لي ولغيري على أداء هذه الأمانة العظيمة، والمسؤولية الكبيرة، والرسالة الخطيرة، والمنصب الشريف، والمقام الْمُنيف، ألا وهو خطبة الجمعة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبيّه الناصحِ الأمين، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

الفهارس:

١. (المقدمة)
٢. (أهميّةُ الخطبة)
٣. (ملائكة الرحمن تستمع لك، فاقدر لها قدرها)
٤. (أنواع الخطباء)
٥. (الصعوبات التي واجهتها في بدايةِ عملي في الخطابة)
٦. (قصةُ انتقالي من قراءة الخطبة إلى ارتجالِها)
٧. (وجه الشبه بين العقل وخزان الماء)
٨. (المقصود بالارتجال)
٩. (مزيا الارتجال وآفات القراءة من ورقة)
١٠. (الفوائد التي وجدتها في ارتجال الخطابة)
١١. (خمسُ خطوات تُسهّل وتذلّل الطريق نحو الارتجال)
١٢. (السلبيات في ارتجال الخطابة، وسُبُلُ الخَلاصِ منها)
١٣. (طريقتي قبل الخطبة)
١٤. (طريقتي أثناء الخطبة)
١٥. (مهارات تحسين الذاكرة)
١٦. (طريقتي بعد الخطبة)
١٧. (نصائح عامّة للخطيب والداعي إلى الله)
١٨. (اجعل نُصب عَيْنَيْك عامةَ الناس)
١٩. (إياك والإعجاب بمدح الناس)

٢٠. (تكلّم بما ينفعهم في دينهم أو دنياهم)
٢١. (عليك بكتب الأدب والبلاغة والشعر)
٢٢. (الحذر من الإطالة في الخطبة)
٢٣. (ابتعد عن الغريب من الكلام)
٢٤. (ابتعد عن تكلّف السجع)
٢٥. (أسباب التخلّص من الخوف المفرطِ من الخطابة)
٢٦. (تفاوتُ زمن تحضير الخطبة)
٢٧. (البعدُ عن الأوامر المباشرة للمستمعين)
٢٨. (متى يحسن ويقبح التقليد في الخطابة؟)
٢٩. (لا تحزن لقلّة الحضور عندك، ولا تفرح بكثرتهم)
٣٠. (أهميّةُ الإعداد الجيد)
٣١. (العنايةُ بعلامات الترقيم)
٣٢. (أهميّةُ تنويع المواضيع)
٣٣. (أهميّةُ اكتساب مهارات وفنون الإلْقاء والتأثير)
٣٤. (العناية بأداتين من أدوات التأثير: الصوت والنظر)
٣٥. (لا تلتزم صيغةً معيّنة لم تثبت بالسنة الصحيحة)
٣٦. (العنايةُ بمخارج الحروف وعدمِ تداخلِها)
٣٧. (مقصودُ الخطبة، وأهمّ المواضيع التي يجب على الخطيب طرقها)
٣٨. (الحرص على رباطةِ الجأش أثناء الخطبة)
٣٩. (القلق والتوتر في بداية ارتجال الخُطَب أمرٌ طبيعي)

٤٠. (الخاتمة)

٤١. الفارس